مُحسن الحبيب
خريج جامعة بغداد

الملاح الشاعر

دراسة تحليلية

بني العرب ان المجد يصرخ فيكم :
ركاض الى المجد الاثيل ركاض
علام تباعدتم وما ابتعدت بكم
عن الوحدة المثلى ’لغىّ واراض
« الملاح »

مطبعة أسعد
١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م
بغداد

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
فـــي 11 / ذو القعدة / 1443 هـ
فـــي 10 / 06 / 2022 م هـ

سرمد حاتم شكر السامرائـــي



الاهـــداء



الى من غذياني صغيرا ...

وشملتني رعايتهما طفـــلا ...

وفارقتهما شابا ...

اليكما نتاجي هذا ، بشير العودة والتلاقي .

محسن

الملاح الشـــاعر

تقـديم وتعريف

هذه كلمة يسيرة أرادني على قولها الاديب صاحب هذه الدراسة .. ولم أكن أجدني أهلا لتقديم كتب المؤلفين ، لولا أن يكون الاخ الاستاذ النونسى قد شـــــاء ذلك مشيئة لم يأذن لي أن ألقي ازاءها بمعذرة من المعـــاذير .

أما المؤلف فهو أديب رضي الخلق حببه الى نفسي ما ألفيتـــــه في شخصيته الدمثة من الفضل والملكة الادبية ، فكانت لي به صلات من الود والاعجاب لا أزال أسترق حواشيها وأفتن بها ...

ودراسته هذه حرية أن تكون ذات قيمة عاليــــــة في سوق البحث الادبي ، فقد عني المؤلف فيها بشخصية الشاعر العراقى المعاصر الاســتاذ محمود الملاح ، فدرس هذه الشخصية على نحو ما تهيأ له من سوانح الزمن وفراغ الوقت فجاءت الدراسة موجزة غير مسهبة ، ويمكن أن يقال فيها انها أشبه برؤوس أقلام تركها الباحث ليستعين بها من شاء أن يعني بدراسة (الملاح) يوما من الايام ..

والبارع في الأمر ان مؤلف البحث تونسي من الغرب فهو اذ يسعى في دراسة شخصية أدبية من المشرق فانما يسعى في ربط أواصر مبتوتة من عهد بعيد .. ومن هذا الوجه كان لهذه الدراسة معنى رائع عظيم .

والملاح في نفس الوقت شاعر في مقدمة شـــعراء العرب اليوم ، له

طريقته الأصيلة في نظم الشعر وقرضه ، وكنت قد عنيت بدراسة فصول من شعره ولعلي اوفق لنشر دراستي الخاصة في ذلك ، قريبا أو بعيدا .

ولا جرم ان الاستاذ التونسي أصاب الاختيار ، وان كان من الحق أن أنوه بأن أصل الأمر كان مقترحاً اقترحه الشاعر الأديب الدكتور يوسف عزالدين استاذ الأدب العربي الحديث في كلية الآداب على (تلميذه) المؤلف ..

ومما يستثير اعجابي بصاحب الدراسة ان مصادره لم تكن مهيأة له انما أطال البحث عنها وراود مظانّها في بطون الصحف والمجلات العديدة حتى لَمَّ منها ما تيسر له أن يلمّه خلال أشهر ليست بالقليلة . فمن المعروف أن الأستاذ الملاح لم يطبع بعد شيئاً من دواوينه الشعرية .. وظاهر ان تعقّب هذه المظانّ واستنساخ ما فيها من مادة شعرية ليس بالأمر اليسير فهو يتطلب من الجهد والحرص ما يعلمه معانوا التأليف ..

وأعتقد ان مجاميع (الملاح) الشعرية المخطوطة لو توفرت لصاحب هذه الرسالة لجاءمن تحليلها وتفصيل أمرها بالعجب العجاب . فاني ألفيت الأخ الاستاذ التونسي يحسن التلفت الى دقائق المعاني ويتقن تلخيص المقاصد الشعرية التى تأطرها قصيدة الشاعر ، ولا بدع في هذا فهو أديب لوذعي نابه ..

والمؤلف حسن العبارة نقي اللفظ فقد قرأت له ما تيسر لي أن أقرأه من بحوث أدبية شتى فأحسست انه لابد أن يكون يوماً ما أحد الكتاب الذين ستحفظ المظانّ الأدبية لهم النماذج الطيبة من النثر الفني ..

وفي الختام اهنىء صديقي الاستاذ محسن الحبيّب مؤلف هذه الفذلكة على باكورة انتاجه ، آملاً أن أجد اخواننا الطلاب يعنون بمثل هذه الضروب من الدراسات البارعة ، فان هذه البواكير الشهية خير ما يتركه الشباب لأنفسهم من الذكريات وربما كان انتاجهم أيام شبيبتهم أكثر امتاعاً وطرافة من انتاجهم أيام كهولتهم . فليكن لأخينا الحبيب من

مؤلفه هذا أكثر من ذكرى واحدة في بغـــداد •• جعله الله من رعاة العلم والأمناء عليه •

الشيخ جلال الحنفي

الملاح الشـــاعر

تمهيـــد

بدأ التلاقح الفكري بين الامة العربية والغرب منذ زمن باكر ، ففي العصور العباسية الزاهرة اعتنى العلماء بترجمة ما بأيدي الأمم الأخـرى وحين نقلوا هذه العلوم درسوها وهضموها وأضافوا اليها أشياء هامـــة من مبتكراتهم ومنتجاتهم ، واستمرّوا في هذا الخلق والتمازج والاحتكاك حتى أصاب الأمّة العربية ركود سمي بعهد الانحطاط والظلمة •

ومن المشرق والمغرب ـ خاصة الأندلس ـ أخذ الغرب تراثا ضخما وبذورا نافعة للنهضة الغربية • واذا كانت الامة العربية قد سلمت هـــذا الانتاج الضخم وتلك الطاقة الفكرية والعقلية الهائلة الى الغـرب وهي في غفلة عنهما او هي مهتمة بتناحرها ومنافساتها الداخلية فقد استردته النهضة العربية الحديثة •

واذا كان الحكم العثماني الذي شملت سلطته كافة الأقطار العـربية قروناً طويلة كانت نقطة الفصل بين هاتين المرحلتين بين المدّ والجـزر • والذي بقيت الأمة العربية في زمنه طليقة مهملة غير واعية لمشكلاتها فما ذلك كله الا لعدم تجاوب المحكوم لضعفه مع جهل الحاكم المستبدّ ، أضف الى هذا خلو الدولة الحاكمة من حضارة ثابتة لها أصالتها القديمة ، حتى تفرض وجودها على المحكومين وتلزمهم دراسة هذا التراث وتلك الحضرة بل بقي المحكومون يجترّون الماضي ويتجاذبون اطرافه ويقلدون اقطابه فلا هـم

مقلدوه تمام التقليد ولا محاولون جرّه وجعله يتمشى مع حياتهم وظروف عصرهم • وبعبارة أدقّ ما كان الانسان ليجد نفسه في هذا المجتمع ولا هو يسير في البحث عن نفسه •

في هذا الجوّ الموبوء ظل الشاعر العربي يطرق أبواب الحكام ليتقرب اليهم بشعره الذي لايكادون يفهمونه والاّ فهو يردّد أنين حزنه في زوايا النسيان أو يفلسف الحياة على هواه فيتلهى بالتوافه دون أن يعي المشاكل الانسانية وهو ان وعاها فلا يجد القوّة الكافية للافصاح عنها • معنى هذا انك كنت تجد المادح المتزلف والشاكي الباكي الى جانب آخر وجّه شعره الى مشكلات دينية ••• وهذا كله وغيره لايتنافى مع تيّـار ومصـالح الحاكمين •

ونتيجة لكلّ هذا أصبح تفكير الشاعر فرديا ولا يعرف عن الآخرين شيئاً ولا يتلمس مشاكل الأمة العربية ثمّ هـو لايعيش مع الغـرب في حركاتهم وآدابهم ومخترعاتهم ولا يعيش كانسان مفكر له رسائله في هذا الخضمّ من الحياة انما يعيش وراء القوت ••

وهنا وفي هذا الجوّ الراكد تأتي الحملة الفرنسية ونزول نابليـون مصر بعدّته وعديده وكان ينزل معه نخبة من العلماء الفرنسيين وغيرهـم لدراسة مصر اقتصاديا وسياسيا •• لأنه كان يبحث عن وسائل استمراره في مصر ليغزو منها الجوانب الاخرى •

واذا كان الفكر العربي كغيره يمتاز بالاندماج والحيوية والطواعيـة فغير غريب ان يحتكّ مفكرو العرب بهؤلاء الغازين ومنهم تكون نقطـة الانطلاق والبذور الاولى لهذه النهضة التي نعيشها •

وليست حملة نابليون هي التي أيقظت العرب فقط بل الى جانبهـا تلك الحملات والبعثات التي غادرت العالم العربي لتطلع على ما بأيدي الغرب ثم هي في رجوعها تحمل معها الوقود والمقوّمات لانقاذ الشباب العربي من سباته والتخدير الذي أصابه • ومن زاوية اخرى يخطو العـالم كله في

تسخير الآلة الى الناس وبها يسهل الاتصال المباشر وغير المباشـــر بين كل الاقطار ، فأصبح العالم عبارة عن ولاية صغيرة أو امارة ضيقة .

ولا انسى قبل هذا دور المطبعة في تقريب الناس الى بعضهم وجعلهـم يطلعون على الأشياء بظروف سهلة يسيرة بفضل تلك الصحف التي حملت جذور الوعي ودفعت المشرقيّ الى معرفة ما عند المغربيّ ، وهكذا اتصلت الانسانية ببعضها وخرج الشاعر من نظرته الفردية الضيقة الى النظـــرة الانسانية العامة ، ووعى الشاعر مشاكل أمته ومساوىء مجتمعه عندما قارنها بالمجتمعات الأخرى فادرك انكماشه وخوره وتلمس الأوبئة الضارة المتفشية في محيطـه وادرك انه يعيش في انغلاق وركـــود كما احسّ بالبـــون الشاسع بينه وبين الآخرين ، واحسّ انه يتخبط في ذبذبة نفسية قـــوية ينبغي ان يتخلص منها وان يتصدّى لردّ السهام التي تحاول ان ترشق في جسمه الضعيف .. فأخذ يفكر في الخلاص ...

واذا أردنا أن نعرف متى تولد في نفوس العرب الوعي القوميّ لأمتهم وعياً تاما ادركنا أنّ كارثة فلسطين ١٩٤٨م هي التي عممت هذا الوعـــي وبلورته ودفعته الى الامام واوجدت من العرب اناسا يفكرون تفكيراً انسانياً ثم عربياًقومياً ، مع اننا نجد بعض الاشارات الخفيفة الخافتة عندشعراءالعراق مثلا قبلهذا فهمقد استاءوا لما يقاسيه الليبيون والمراكشيون والتونسيونمن نير الاستعمار ابان الاحتلال . لكن هذه الاشارات الخافتة او هذا الاحســاس الذي نستشفه في أشعار هؤلاء وغيرهم هو لايعدو ان يكون شعورا فـــرديا ومن ناحية أخرى هو لم يتبلور ويصبح شعورا قوميا آنذاك انما هـــو في الحقيقة شعور ديني ، اذ رأى الشاعر العربي في تلك الفتـــرة استعمار الايطاليين والفرنسيين متمثلا في السيطرة الدينية فاعتبر هؤلاء المستعمرين كفارا يحاربون المسلمين والاسلام ، فيتألم الشاعر لآلام اخوانه في شـمال افريقية فقد نظر الى ذلك بمنظار الدين ولم يدر الخطر الغربي ولم يتفهم القومية العربية . لكنّ مأساة فلسطين أوجدت من الانسان العربي رجلا يفكر في القومية العربية وما تتعرض له هذه القيمة المشتركة بين العرب في

جميع الأقطار من خطر ومهاجمات واسلحة هدّامة • وأصبح الشاعر او الكاتب وكل المفكرين اذا حدّثوك عن فلسطين في قصصهم ومسرحياتهم وأشعارهم نقلوا اليك مشاعر الامة العربية جمعاء ونظرة الانسانية الى هذه النكبة وما انتجته من مواعيد خائنة وعائلات مشردة بينما اذا حدثك الشاعر العربي عن ليبيا وغزو الايطاليين لها فقد ينقل اليك احساسه الفـــردي وتجربته الخاصة • نعم ، من فلسطين وحدها اتضح الوعي القومي ومنهـا اتجهت انظار المفكرين الى وحدة الاقطار العربية وضـرورة ذلك ليقفوا جميعا في وجه الخطر المحدق الذي بان واضحا كاشفا عن أنيابه ، وقـد نشبت مخالبه في فلسطين المعذبة التي بقيت جرحا لايندمل الا بالعـودة • فتجلت في الشعر روح المقاومة والطلب بالحـرية والاستقلال فكنت ترى الدماء تتقاطر من هذه الاشعار وكان التشرد والحرمان والخيـانة ركائز لكتابة نثرها وشعرها •

مقسـمين الى اجــزاء اختلفت ... كمـا تقسّم في أربابها الجزر
وليس ذاك لفقــر في مرابعنـا ... فليس يعـوزنا مال ولا بشـر
لكن تفرّقنـا أودى بعزّتنـا ... ففاتنا في الأنام العزّ والخطـر
يا قوم! هذا أوان العزم فاعتزموا ... وذا اوان ادّثار الحزم فادّثروا
تآلفوا وابتغوا قطبـاً يدار به ... ان الرحى دون قطب دورها عسر (١)

وقد زادت ثورة الجزائر في تبلور هذا المفهوم وقد كشـفت لكل عربي خطر الدول الغربية فأدرك ما تضمره للأمة العربية من دسـائس واسـتبداد •

كلّ هذه المآسي التي انصبت على الشعب العربي اكسبت الشعر نغما خاصا وانموذجا معينا فجعلته يدعو الى التآلف وينادي للانسجام والوحدة وهو في كل هذا يتسم بطابع المقاومة والحرية والاستقلال ويشـرح البؤس والتشرد ويقطر الدم ويذرف الدمع • واذا أضفنا الى هاتين الكارثتين هذا

(١) الأبيات للملّاح من قصيدة نشـرت في جريدة الزمان (١٩٤٤م) العدد (١٩٧٩) •

الاستقلال الحديث الذي تمتعت به بعض الاقطار العربية أدركنا اصالة تلك الروح الحماسية التي صاحبت الثورات العديدة والمقاومات العنيفة • نعم كان الشعب العربي منذ زمان بعيد يعاني كابوس الاستعمار في جميع جوانبه ويعاني الاستغلال والظلم • واذا اضطرته هذه الحملات والهجومات الى التخلي عن موارده وانتاجاته واتخاذ الاستعمار اياه بقرة حلوبا • فقد قدّمت له هذه الحملات واولئك المستعمرون سبل الاحتكاك العقلي والروحي وقديما وحديثا تلعب الحروب دورا هائلا في التلاقح الفكري وتبادل العلوم واحتكاك اللغات ، فالاستعمار الفرنسي في سورية ولبنان وشمالي افريقيا ••• قرب للشباب العربي هناك الانتاج الفرنسي بكل فروعه ، وفي مصر والاردنّ والعراق •• يسرت اللغة الانكليزية لمفكري هذه البلدان الاطلاع على كلّ ما كتب وبحث بلغة مستعمريها •

واذا رجعنا الى النهضة العربية الحديثة نجدها تسير في رافدين متباينين متكاملين ، رافد الترجمة والاطلاع على ما عند الأمم الاخرى ورافد ثان هو الخلق والابداع • ومن هذين الرافدين كانت نهضتنا المباركة التي خطت الآن خطوات سريعة في سيرها الثابت ، فكلّ ما يحدث في الغرب او يكتب نجده سرعان ما ينقل الى اللغة العربية ويدور حوله النقاش وتنقله المجلات والصحف ويتعصب له البعض ويتنكر له الآخرون[١] •

ومن هذا كله اصبح الفكر العربي مطلعا على كلّ المشاكل الانسانية ثم هو يشارك في كل الفنون والاتجاهات مشاركة الندّ للندّ ، فلا تجد مذهبا أدبيا عالجه الغرب او ابتدعه الاّ تحدّث عنه أدباء العرب وناقشوه وعالجوا خطواته ومشكلاته •

ومن هذا الاطلاع الواسع وهضم الثقافات الاخرى وحيوية الفكر العربي كان لنا أدباء لهم وزنهم في الادب العالمي على اختلاف انتاجهم وافانين القول ، وبعبارة أدقّ كنت تجد لنا جماعة ممتازة في كلّ فن ولون

---

(١) و (٢) انظر مجلة الفكر التونسية عدد ٣ (١٩٦١) • (السنة السابعة) •

من التفكير العقلي سواء في القصة او المسرحية او الشعر بمذاهبه او التأليف والبحث.[٢] وان كنا نعلم ونطلع ونقرأ كلّ ما عند الغرب سواء عن لغته الأصلية أو عن ترجمته الى لغة اخرى نحسن فهمها او عن ترجمته الى اللغة العربية فمن الواضح انّ الغرب ما زال لايعرف عن نهضتنا الحديثة الاّ القليل النادر اذ ما زال المستشرقون ينبشون في قبور الماضين ويتعلقون بكتبهم القديمة دون أن يتعدوها الى غيرها لأنهم آمنوا بنضج تراثنا القديم وسلامته واستخفّوا بحركتنا الجديدة وسخروا منها وبقوا ينظرون اليها نظرة المستعمر والحاكم . وليس ادلّ على هذا من عدم شمول الترجمة انتاجنا الحديث وان كنا نعلم انّ انتاج وكتب جبران خليل جبران قد ترجمت الى لغات عدّة فغيره قليل ممن عرف عند الغرب واصبح انتاجه معلوما عنده بقدر معرفتهم للكتب القديمة[١].

ولكن سوف يقف يوما الشباب الغربي على ما بأيدينا ويبتعد عن نبش قبور الماضيين ويعيش مع الأحياء في انتاجهم وافكارهم وعندئذ يشعرون انا اصبحنا متساوين ويعمّ السلام وينتشر الاخاء وينشط الكلّ للعمل المثمر وترفع الحواجز ما دام الانسان هو الانسان وقد اشترك العربي وغيره في كل الطاقات[٢] .

هذه سطور أردت تسجيلها لأجعل القاريء يعيش معي في هذا الواقع الذي تلمسته ثم ليحسّ معي هذه الوثبة المباركة التي آتت أكلها وقدمت ثمارها الناضجة متمثلا في أشخاص عدّة بكتبهم ومقالاتهم وبحوثهم ودواوينهم ..

ومن ضمن هؤلاء الذين اندمجوا في هذه النهضة بأرواحهم وعقولهم أردت أن ادرس شخصية عراقية حديثة وسوف تنحصر هذه الدراسة في شعر هذا الرجل واذا كنت انا قد وليت وجهي الى هذا الشاعر دون غيره

---

(١) و (٢) انظر مجلة الفكر (نفس العدد) .

فغيري من الطلاب قد اهتمّ بآخرين وعملي وعمل هؤلاء روافد صغيرة لنهضتنا الادبية الحديثة .

ومن اتمام خطوات هذا البحث ذكرى الدواعي التي أيقظت نفسي على دراسة هذا الرجل وجعلتني أتعقب أشعاره بالتسجيل والدرس لاستمدّ منها المقوّمات والركائز التي مثلت صاحبنا بأشعاره الكثيرة .

ان تشعب الأقطار العربية ونضج الحركات الأدبية فيها أوحت للباحثين تجزئة الحديث عن الحركات وبكلمة أخرى ان هذا التشعب في الانتاج والآداب جعل الدراسات تتسم بطابع الاقليمية في الدرس فرارا من تشعب الموضوع وجريا وراء استيفاء حقّه من الدرس والتتبع لهذا وغيره كنت تجد كتبا ادبية اهتمت بمناطق مختلفة والى جانبها ابحاث هائلة تعنى بأشخاص معينة وهي مقصورة على شاعر مرة وعلى كاتب مرة ثانية .

واتمنى ان يكون بحثي ضمن هذه الحلقة ولا انسى ان اشير الى انه مجهود طالب عاش ونما في نطاق الأجواء الدراسية والفترة الجامعية والى جانبه كانت واجبات الدرس ...

ومن هذه الزاوية كانت دراستي هذه واجبا القي عليّ في هذه السنة وهذا راجع الى انّ الدراسة في جامعة بغداد مقسمة على السنوات ، وكان برنامج الصفّ الرابع من شعبة اللغة العربية دراسة العصور الحديثة والتيارات الأدبية الجديدة في الوطن العربي ومن ضمن هذا تسند البحوث للطلاب فكان نصيبي من هذا الواجب القيم دراسة الشاعر الاستاذ محمود الملاّح . فتقبلت هذا الواجب بشوق كنت أسعى من ورائه الى الالمام ببعض نشاط هذه الفترة التي يعيشها شاعرنا مادام الشعر هو خير معبّر عن عصره وهو مرآة تنعكس فيها تيارات العصر وروحه والشعر قديما وحديثا هو احساس قائله يستوحيه من محيطه وبيئته وظروفهما

وما شعر الفتى الاّ شعور فامّا ناطق او ذو وجوم
فان ينطق فذلك خير شعر وان يسكت فما هو بالملوم (١)

---

(١) جريدة البلاد ١٩٢٩ . العدد الاول .

والشعر دائما في صياغته وصوره يدلّ دلالة صريحة على ملكات ومقوّمات صاحبه وهو دائما يقدّم الصورة الواضحة للعصر مهما حاول صاحبه أن يجعله ذاتياً يمثّل نفسه فقط ، ومهما سحبه اليه وجعله يدور في فلك معين فهو لابدّ أن يبرز التيار ويرسم الهيكل الفقري للعصر والمحيط. وبهذه الدراسة اعتبر نفسي اطلعت على فترة طويلة من خلال شعر المترجم وأفكاره بل أكثر من هذا انا مطمئن كلّ الاطمئنان ان هذا الشاعر يعطي الصورة الكاملة لاتجاه عصره لأنه عاشه بروحه وجسمه وكانت له امكانيات العباقرة الذين يستطيعون أن يمثلوا التاريخ بتدقيق في شعر عذب لطيف كما سوف استمدّ ذلك من أشعاره وكلماته فيما بعد ..

ورافق الواجب رغبتي وتعاون هذان العاملان ودفعاني لدراسة الموضوع ، ولولا الصبر الذي لازمني في خطاي لما استطعت ان اظفر بمعلوماتي حول الموضوع فقد دبّ فيّ اليأس أول الامر واستضعفت رأي استاذي يوسف عزالدين فترة من الزمن عندما كلفني بهذا الواجب وكان معجبا بالشاعر اذ اني لم أجد من يؤيد هذا الرأي ولم يتناوله الكتاب في مقالاتهم وكتبهم ، ولولا تلك الابيات التي تعرّض لها الاستاذ يوسف في كتابه (الشعر العراقي الحديث) وتلك الترجمة القصيرة التي أوردها الأستاذ محمد سعيد الجليلي في كتابه (أناشيد وطنية) وتلك الاشارات الخفيفة التي تعرّض لها دليل الجمهورية العراقية في مقالتي الشعر والنثر لولا هذا لقلت انّ الشاعر لم يتوجّ أي كتاب .(+)

واذا كان الدكتور عزّالدين لم يمنح الشاعر المكانة اللائقة به في كتابه لأسباب أجهلها اذ اكتفى بعرض بعض الابيات له كاستشهاد منه على

(+) وظهر اثر تبيض هذا الكتاب مقال للشيخ جلال الحنفي استعرض فيه الامثال الشعرية في شعر الملاح (المعرفة العراقية العدد ٢٩ السنة الثانية ١٩٦٢) .

ووردت كذلك ترجمة للشاعر موجزة في كتاب (تاريخ علماء الموصل) ص ٩٠ ج١ . والكتاب تأليف الحاج أحمد محمد المختار .

بعض تيارات العصر الذي أرخ له [1]

كما عدّه في مناسبة أخرى من الشـــعراء الـــذين رثوا الشاعر الرصـــافي [2]

ومهما تكن الاسباب فالدكتور قد فقد شخصية هامة وحلقة متممـة لبحثه لأن شاعرنا لا يستغنى عن أدبه الجمّ أصلا سواء من الناحية التاريخية أو الفنية مع العلم ان اغلب شعره منشور في الصحف والمجلات العديدة •

ولكني لا أنكر فضل الدكتور يوسف عزّالدين فقـد دلني على من أخذ بيدي ومهد لي الطريق للوصول الى هذه الاخبار التي سوف أسجلها في هذه الصفحات • ولا يسعني هنا الاّ أن أقدّم شكري للأستاذ جعفـــر مال الله صديق الشاعر وملازمه كما اتقدّم بالشكر الجزيل لكافـة موظفي المكتبة العامة في بغداد الذين ساعدوني بتذليل بعض الصعوبات في طريقي الى مراجعة الصحف القديمة •••

أضف الى هذا اني حظيت بجلسة لطيفة قضيتها مع الشاعر تناولنا فيها الحديث من عدّة جوانب ، وقد اعجبت بشخصه وتعمقه في البحث وتتبعه للّغة ومدى اطلاعه الواسع على الحركات الفكرية في كافة الأقطار العربية ، ومن هذا اللقاء ومن أشعاره سوف استمدّ كلّ حديثي عن الشـــاعر ، ويجدر بي ان انبه هنا انني لم استطع ان استقصي كلّ أشعاره لعدم توفر الوقت الكافي لانشغالي بواجبات الدروس ، وكذلك لم يكن كل شعره في متناول الايدي ، وانا وان اعتبرت الاستاذ الملاّح من أول حديثي الى الآن شاعرا فقط فما ذلك الاّ لأني جزأت البحث ودرست انتاجه الشـعري ، ولكني أرى نفسي مضطراً للحديث عنه كناثر بكلمات موجـــزة تكون اشعاعات لموضوع آخر •••

---

(١) الشعر العراقي الحـــديث ص ٢٠٥ـ٢٠٧ـ٢١٨ـ٢٣٣ـ ٢٤٨ـ٢٥٠ (طبعة بغداد ١٩٦٠) •

(٢) نفس المصدر ص ٢٣٠ •

شاعر وكاتب

لايمكن بحال ان اتغاضى عن جانب مهمّ للأستاذ محمود الملاح فهو وان كان قد بان لنا انه شاعر مجيد فهو الى جانب هذا كاتب موفق اجـــاد في المواضيع النثرية المتعددة الى جانب اجادته في الشعر(١)

واذا كان الشعر والنثر يتطلبان من قائلهما ان يعيش للتجربة ويتفاعل معها كانت التجربة حقيقية او خيالية ٠ واذا كنا نتطلب من الناثر الصياغة وحسن السبك وتجاوبه مع ما يكتب فكذلك نتلمس هذه الأشـــياء من الشاعر نفسه ٠٠ لكن لابد ان يفارق الشعر النثر مادام هو يعمل الى ترادف الابيات وتناسقها في ضمير الشاعر وفي اسلوبه وموسيقاه ، ثم ما دمنا نؤمن كغيرنا انّ الشعر يحتاج الى موهبة وإلهام ينميهما الاكتساب والدربة فقد أصبحت الفوارق واضحة بين الفنين بهذه الأشياء وغيرها ٠

ثمّ اذا كانت هذه الشروط متوفرة في شعره نابعة من داخله فانّنـــا نحكم سلفا انّ للرجل نثرا قويا يسوده الانسجام وحسن العبارة وتناسق المفردات ٠٠٠ واذا كان يرى البعض انّ أقوالي هـــذه اعتباطيـــة أو هي استنتاجات عابرة فتطمينا لهؤلاء اقدّم بين يدي القاريء هذه الفقرات مـــن

---

(١) من الكتاب الاحياء الممتازين في النثر الاســتاذ محمـــود المّلاح وهو شاعر أيضاً (مقالة النثر في العراق) دليل الجمهورية العراقيـــة ١٩٦٠ ص ٥٥٢ ٠

ـر المترجم ، وهي ـ قليل من كثير ـ تمثل خواطر الشاعر واســتدعاءه للذكريات في جلسة اعتزل فيها الناس وخلا الى نفسه يحدثها ويجتــر معها الماضي وقد عنونها (القطوب بعد الابتسام) • « ما من ابتسامة الا في عقبها قطوب ، كذلك كانت ابتسامة المغيب اذ هي أشبه بصحوة المحتضر • هنالك قطعت صلاتي بكل ما كان يطيف بي من شواغل القهوة وضوضائها وتكلفت شبه غفوة تفرغت فيها لمشاهدة طوف الماضي معروضة على رقوق الخيال • وهي محفوفة بالحلك شأن السينما ، فثارت حينئذ ذكريات العروبة ومجدها الرافل ببرده على ضفاف الرافدين حيث الراية السوداء سواد مقلة الأيام وسويداء فؤاد الدهر فعنّ ببالي بيت من قصيدة نظمتهـــا في عهـد الترك ثم غالها غول التجسس وهي :

ما زالت الايام تبكي دولة كانت سواد عيونها ســـوداها

أما انه لو نطقت هذه الأمواج أو لو ترجمنا لغة خريرها التي تشبه عمغمة السياسة ولغة الدواوين • لغمرتنا بالقصص ولحدثتنا بواقعة الجسر وواقعة القادسية من أيامنا البيض وأخبـــار هولاكو وأحاديث تيمـور من أيامنا السود •

نعم لو ألحفنا على هذا الماء واستجوبناه استجواب متهم لاعترف لنـا بالجرم الذي اقترفه أو كان عونا على اقترافه يوم ألقيت في قعره كتـــب المستنصرية وأسفار النظامية فانطوى عليها انطواء القمطر •

ويوم تحرّى أخوال المأمون او الخليفة الملفق أخاه ابن زبيـــدة بالحرّاقات التي انفذها طاهر بن الحسين كما يتحرّى السمك هؤلاء الذين أراهم الآن يمخرون دجلة بزوارقهم •••• »[1]

لا تمثل هذه المقالة الشاعر التمثيل الكامل فمقالاته عديدة قد توّج بها جرائد ومجلات جمع بعضها فكوّن منها كتبا قائمة الذات مشـــهورة متداولة • ومنها يتبين لنا ان للأستاذ الملاّح جانبين لايقلّ احدهما عـــن الآخر أهمية ، وقد اكتفيت بأحدهما وهو الشعر اما الجانب الآخر فتلزمه

---

(١) البلاد العدد ٥٦ سنة ١٩٣٠

دراسة خاصة ، ولا تكفيه هذه الاشارة العابرة بأن اقول انه تناول فيه مواضيع عديدة ، منها الدراسات اللغوية والوقفات التاريخية والآراء الاسلامية القوية ، وهو في هذا الجانب غالبا ما يعمد الى تعقب خطى المتعثرين كمقالتيه[1] اللتين تعقب فيهما الهفوات التي وردت في كتاب فجر الاسلام لأحمد أمين ... ومقالات تعقب فيها نزوات طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي) واخرى بيّن فيها اخطاء انزلقت في كتاب ابن خلدون (المقدمة) سواء من الناحية التاريخية أو من حيث تناقض ابن خلدون في بعض آرائه .

واذا كان شعره يتمثل لنا في ديوان ضخم عسى ان نراه قريبا في المكتبات . واذا كان كثير من شعره منشورا في صحف ومجلات عراقية كثيرة فنثره قد سار للطبع منذ زمن بعيد وهو يتمثل في عدة كتب استطعت ان أظفر ببعضها وهي في الواقع تدلنا على تعمق صاحبها في كلّ ما يطالع لأنها كانت نتيجة لمطالعات واسعة بنى عليها استنتاجاته وتعليقاته ، وما ان تتجمع عنده هذه الملاحظات وتصبح صالحة لأن تنشر حتى يعمد الى صقلها وتحريرها كرسالة أو كتاب يستحق النشر . والى جانب هذا علمنا انه شارك في وقت مضى في مجلة لغة العرب واليقين والكفاح والتمدن الاسلامي وغيرها سورية ومصرية .

بعد ان تحدثت عن الشاعر وانتاجه بفرعيه أرى الحاجة ملحة الى القاء بعض الاضواء حول الشاعر والتعريف به ولا يسعني الاّ أن اسجل هنا بكل أسف ان الشاعر لم يُمنح القيمة اللازمة له في عصره وما زال شبابنا لايعرفه في وقت هم فيه متعلقون بالاشعار السخيفة ومباهون بأسماء أصحابها تعميراً لفراغ نفسيّ يشعرون به وقد كنت اعتقد اني في غنى عن تقديم الشاعر لكني آمنت اخيراً ان الشباب العراقي لايعرفه والواقع ان هذا الشباب وعدم معرفته له ليس حجة على الرجل لأننا اهملنا أشياء هامة

---

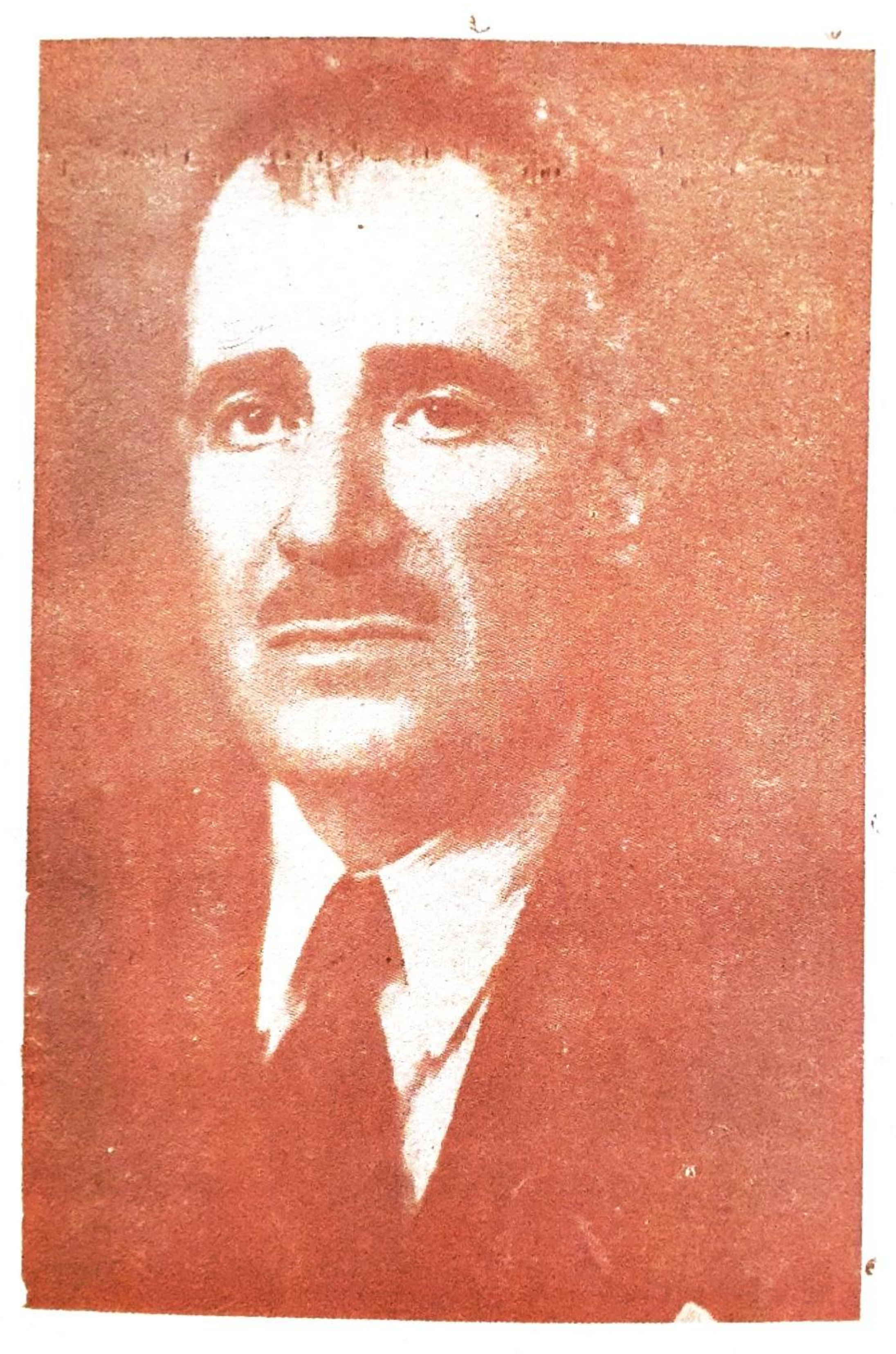
(١) البلاد العدد ٥٦ سنة ١٩٣٠

(٢) البلاد العدد ٩ سنة ١٩٢٩

وتعلقنا بأشياء سخيفة فأهمل الشباب رسالته الأساسية في الكلية وأصـــبح يتنفل بالسياسة .

وجانب آخر مهمّ أودّ أن اشير اليه هو ان الشاعر يعيش هــــذه السنوات في عزلة تامة ولم تطالعنا أشعاره في الصحف السيارة ثم هو شخصياً لم يكن همّه الجاه أو الشهرة بعد ابتذالها او الحظوة الاجتماعيــة ليتملق العظماء حتى يظهر اسمه متطفلا على مسرح الأدب . والشباب في هذا الزمن في غفلة عن الماضي اذ همّه (الحاضر ومشكلاته) وانا وان قسوت بحكمي على الشباب فيجب ان أسلط جزءاً من هذا اللوم على الكتاب والأدباء الكبار الذين تغافلوا عنه . وما حقّ لهم ذلك ان كانوا منصـــفين في رسالتهـــم الأدبيـــة .

نعم انا شعرت بحاجة قوية تدعوني الى التعريف بالشاعر لهذا اخترت ان اعقد للحديث عن تاريخه فصلاً خاصاً .



الشاعر الكبير الاستاذ محمود الملاح

حيــــاته

ولد الاستاذ محمود الملاّح في مدينة الموصل وشهرته جاءت من تجارة اسرته في مادة الملح • وهذه الشهرة يشترك فيها اسر كثيرة في الموصـــل وسورية •• وفي جنوبي العراق يطلق الملاح على من يعمل فيالسفن وهذا هو المشتهر في الاستعمال •

سألت الشاعر عن تاريخ ولادته فقال : (اني من مواليد سنة (١٣١١) الرومية في السجل العثماني ، وبينها وبين الهجرية في ذلك الوقت سنتان ، الا ان الناس ماكانوا يسجلون أولادهم اثر الولادة بل يؤخرونها وبحسب تخميني اني من مواليد سنة ١٣٠٩ هـ •• واردت ان اصنع لي تاريخا فجاء (تاريخ محمود) بحساب الجمل ، وتقديره بحسب التاريخ الميـــلادي (١٨٩١) ••

فيكون الاستاذ قد قضى نحو ربع قرن في الحكم العثماني ، ونتيجـة لهذا يكون قد درس في المدارس العثمانية الرسمية فأتقن قواعد اللغـــة العثمانية ثم هو لم يكتف بهذا فمال الى المدارس الدينية فأتقن العلوم التي تسمى (علوم الجادّة) أو (علوم الآلة) من صرف ونحو ومنطق وبيان وعروض حتى حصل على (اجازة علمية) في حفلة أقيمت حضرها علمـاء ذلك العصر وامضوا صورتها بأقلامهم يضاف اليها تكوينه الشخصي وعكوفه على الدراسات الخاصة وتعقبه لدعاة الاصلاح الذين ظهروا إبان شــبابه

كالشيخ محمد عبده وعبدالرحمن الكواكبي ..

وبعد انتهاء خدمته في الجيش بانتهاء الحرب العامة سافر الى سورية بمهمة قومية وجلّ مرامه البحث عن مخلفات الكواكبي ثم عاد الى العراق واستقر في بغداد .. وبعد حين عيّن مدرساً في الثانوية ودار المعلمين وجرت عليه معاكسات فاستقال منها واكتفى بالتدريس الخصوصي في المدارس الاهلية ثم عين في المدرسة العسكرية وبعد الغاء وظيفته اختار العزلة والعكوف على المطالعة والتتبع وقرض الشعر ثم انتخب نائباً عن الموصل ثم رجع الى عزلته .. وهو الى الآن على هذه الشاكلة ، مطالعة مستمرة ، وتعليقات عديدة على كل النقاط التي تعترضه أثناء المطالعة سواء أكانت لغوية أم تاريخية او غيرهما ، وتعليقاته هذه غاية في الوضوح والابانة ، فقد اطلعت على بعضها وهي غاية في الدقة والجلاء بحيث يستطيع الدارس الوسط أن يتفهمها وان كان بعضها عويصا بالنسبة الى قليل الالمام بالموضوع الذي يطرقه ، ومنها كانت كتبه ومقالاته ، فكتابه حقائق ودقائق في مقدمة ابن خلدون وكتابه نظرة ثانية في المقدمة نفسها هما ثمرة هذا التعليق المستمر والمنظم وقد صرح بهذا في تمهيده للكتاب الاول حين قال « وكانت تعرض لي سوانح مختلفة باختلاف الفصول والأبواب فأعلقها على الهوامش بقلم رصاص ، وبطول الزمن لا بتطاوله . اشرفت تلك التعليقات على التلف لضعف مادّة الورق ... فرأيت من احسن ما يخدم به تراث السلف انقاذ تلك التعليقات بنسخها ونسقها والتوسع فيها وتقديمها الى المكتبة العربية خالصة مخلصة » . وفي هذا الجو المفعم بالدراسة والجد يقضي الشاعر وقته منقبا عن الحقائق باحثا عن الحقيقة العلمية دون ان يعرف للملل سبيلا يدرس كل شيء متعقبا الألفاظ باحثا وراء السطور وما تقتضيه هذه الألفاظ من معان لايعرف المجاملة او التسامح ان بانت له الأخطاء والهفوات ، وقد أكسبته الممارسة ذوقا رشيقا ومعلومات لغوية واسعة فكلما بان له خطأ اشار اليه وان كان على نفسه اذا ظهر له الحق بعد حين فكان بهذا قاسياً على المتعثرين يعقب على زلاّتهم بامعان وروية ولا يبالي بشهرتهم ومقاماتهم

وله تعليقات على آثارهم منها ما نشر ومنها ما لم ينشر ، •• وكان بينه وبين الكرملي اللغوي المشهور معارك حامية ، وبفضل صراحته كسب لنفسه خصوماً وفي ذلك يقول :

كثر الخصوم ولا ابالي ان نموا عدداً فهم عندي كخيط الغازل
واذا هم جدوا لقتل فضائلي لم ألقهم الا بهزل الهازل !

والملاّح معروف بنقده الهازل للدعاوي الهزيلة ويجتنب الهزل في الدعاوي الجدية ومما قال وهو اشبه بالمرتجل :

لا البزل ترهبني ولا فصلانها ما دمت مصحوبا بصولة بازل
واذا اردت بكهرباء يراعتي صعقاً لهم لم ينجهم من (عازل) !

وهو لتوسعه في اللغة وغزارة القوافي لديه قد يلتزم ما لا يلزم بغير تكلف وربما شكا خصوبة القوافي ، فهويقول «اني كلما بيضت قصيدة تولدت لي أبيات حتى تبلغ ما أعجز عن تبييضه فأكلف غيري بتبييضها أو أهملها »

وهو يتعجب من هؤلاء الذين يشتكون من جهة صعوبة القوافي لديهم فيلجأون الى تلوينها ، ومن ذا الذي كلف العاجزين ان يصيروا شعراء ؟ ومن رأيه أن صعوبة النظم لم تأت من جهة القافية كما أن صعوبة قواعد اللغة العربية لم تأت من جهة الاعراب فقط ولكن انصاف المحصلين يهيمون في كل واد كالشعراء المزيفين ••

عاش شاعرنا في الموصل من خيرة الشباب واكثرهم اخلاصا ووعيا لمشكلات الامة العربية اذ وعاها وعيا تاما وتفهم هفوات رؤسائها وقد أهلته هذه الامكانيات لأن يكون نائبا عن الموصل في المجلس النيابي سنة ١٩٣٨م وسهل له هذا المنصب السفر الى مصر لحضور المؤتمر البرلماني الذي عقد فيها لمعالجة قضية فلسطين ، وقد جلب اليه اعجاب الحاضرين بقصيدته الرائية التي اتخذ لها عنوانا ينم عن قيمتها •• (لا عرب بغير فلسطين ولا فلسطين بغير عرب) وهي قصيدة طويلة نشر منها نحو خمسين بيتا في جريدة الزمان • كما عبرت القصيدة عن شعور الشعب العراقي

نحو شعب فلسطين الشقيق شعور الأخوّة والتجاوب والفداء وهي لاتخلو من تهجمات عنيفة على الاستعمار ورجاله وسماسرة الشعوب ، وما استطاع الشاعر نشرها في تلك الآونة المحرجة اذ نشرت سنة ١٩٤٤ على صحيفة الزمان البغدادية .

ولا استطيع ان اثبتها هنا كاملة انما اكتفي بنقل بعض الابيات منها وان كنت اشتاق الى ان يشاركني القارىء فيها لما تلمع به من قوّة شعور وصدق عاطفة تجسمت في روح الشاعر ، ومادامت هي ثابتة في الصحف فأرسم بعضها هنا فقط واليك مطلعها :

الله اكبر صــحّ الخبر والخبر — نعم ، وشاهد فوق المسمع البـصر
هذى الكنانة قد غصّت بأســهمها — وفي الهلال الخصيب القوس والوتر
ومن وراء ليــوث هم ذخـيرتنا — يوم الحفاظ اذا ما استفحل الخطر
كلّ يؤيد فيـنـا فكـــرة لمعت — كالبرق ، والبرق آت بعده المطـر
فيها اليمانيّ مثـل التونسيّ ومن — في مسقط مثل من في الأطلس انتشروا
كل يهيب به ذكـــرى مخلّدة — من الفتـــوح على الايام تذ كــر
ان الفتوح لأســماها التي فتحت — بها المدارك لا الجدران والحجـر
تلك الرمـاح الى اقــلام انقلبت — فكلّ طرس عليــه النور ينهمـر
انا بنــــو أمـــة جلّت مناقبهم — ما مثلها سطر الكتّاب اذ سـطروا

●●

غدت فلســـطين مرآة لأندلس — لمّا تطـاير في انحائها الشــرر
ألا ضمائر عن ذا الغي زاجـرة ؟ — لو كان فيهنّ للغاوين مزدجــر
يا خطة من صميم الخسف جائرة — قد سيمها عرب ما سيمها نــور
وما عجبت لقوم ضـلّ سـعيهم — كما عجبت لمن اياهــم نصــروا
ضرب من التيـه لكن منّه حسك — ولحم سلواه مخلوط بــه ابــر

شعور اخوّي صريح يتراءى لنا في هذه الابيات اليسيرة قدمتها روح الشاعر وتفانيه حول الشعب الفلسطيني وهي أبيات ناطقة بالاخلاص القوي والوعي التام لقضية فلسطين رددتها أنفاس الشاعر في هذه الكلمات التـي

هي دفات قلبه وقطرات من دمه • وما كان سفر الشاعر الى مصر هو أول سفر من نوعه فقد سافر سنة ١٩١٩م الى سورية بمهمة وطنية وبقي فيها مدة شغل فيها بعض الوظائف ولما احتلّ الفرنسيون البلاد وشاهد بعض المخازي استقال ورجع الى العراق ، وقد آنست من فحوى مذاكرته ان مرامه كان البحث عن آثار الكواكبي وجماعته كالشيخ مسعود اخيه والشيخ عبدالحميد الكيالي والشيخ بشير الغزّي فأفاد من مذاكرتهم ومحاورتهم ، ولكن الاستعمار غطى على كل غاية •

ثم هو اذا كان قد اقتصر في سفره على مصر وسوريا ، فمعالم الحياة في الأقطار الأخرى كانت عنده واضحة جلية ، فكل الحالات الاجتماعية والأخبار قد أدركها وهضمها حقّ الهضم يدلنا على هذا شعره الفياض بروح الاصلاح والتنديد بالاستعمار الفرنسي في شمال افريقية والايطالي في ليبيا وغيرهما ، اذ ادرك الشاعر حاضر الأمة العربية ومستقبلها وادرك خطر الايدي الأجنبية المسلطة عليها من الخارج ، كلّ هذا الى جانب تفهمه الوضع العراقي وما حاول النفوذ العثماني صنعه وتمثيله على مسرح العراق ثم تلك المخططات والأهداف التي سعت بريطانيا ومستشاروها لتنفيذها بين ظهراني العراقيين وعلى ضفاف الرافدين ، فكانت تدفعه هذه المآسي الى اجترار ماضي العرب وسلطتهم وما قد اصابه الآن من ضعف وانحلال فيدعوهم الى الالتفاف والأخوّة حتى يستطيعوا قهر الخصم الباغي وما كانت تخلو مناسبة من المناسبات كانت فيها الأمة العربية كسيرة الجناح مسلوبة القوة الاّ وأنشد فيها شعرا يفيض حماسا وحيوية ، ومن هذا وغيره تولد لنا انتاجه الشعري الضخم •

ودفعه حبه للعلم واهله الى ربط صلات قوية بأشخاص عدّة تفرق بينه وبينهم مسافات شاسعة لأنهم يشاركونه الميدان العلمي ، فكانت له

جلسات عديدة مع المرحوم الاستاذ عبدالعزيز الثعالبي الشخصية التونسية المشهورة في السياسة والعلم الذي بقي في العراق سنين عديدة لاجئاً فيه يحمي فكرته وآراءه من اعدائه الفرنسيين ، وساقت الصدف الشاعر الى التعرف اليه والجلوس معه كثيراً وقد عبر لي الشاعر عن اعجابه بالمغفور له واكباره لمعلوماته ورحابة صدره وعذوبة جلساته ، ومن تونس كان ايضا على اتصال بالشيخ الطاهر بن عاشور عن طريق الرسائل . كما كان متصلا بأقطاب سورية كعبد القادر المغربي ومحمد بهجت البيطار ومحب الدين الخطيب ومحمد كمال الخطيب وغيرهم . وهذه الاتصالات سعى اليها الشاعر مرات ميلاً منه الى العلم كما عرفته لهم مقالات ذات الروح العلمية والادبية .. التي كانت تنقل الى الاقطار العربية بواسطة الصحف والمجلات ...

وما زال الشاعر دائم الاتصال بالمجلات والصحف والكتب يستوحي منها الاخبار ويتتبع ابحاثها بامعان ودقة وهي انيسه في وحدته ، فتجلب اليه الصحف والكتب ... يوميا ليقضي معها اوقاته ، وهو برغم سعة حاله يعيش عيشة قريبة من التقشف شأن كثير من الاسلاف . وهكذا كان الشاعر يضيع جلّ وقته بين دفتي الكتاب او قرض الشعر والتأمل في الآراء والابحاث ، وربما تلوح له فكرة فيرتجل لها بيتين أو أكثر . وله رباعيات كثيرة يتفكه بها او يفكه بها اصدقاءه ، وله ولوع ببعضهم فينظم ما يلائم الشعر من حركاتهم واطوارهم . وفي جلسة مع الاستاذ عبدالمنعم الغلامي النسّابة الموصلي ، قدم لي دفتراً خاصاً يحمل بين دفتيه جلسات بعض الأدباء وما يدور فيها من فكاهة وقرض شعر ، وكان بين هذه الجلسات جلسة للاستاذ محمود الملاح في دار السيد مولود مخلص (من الساسة العراقيين) وكان بين هؤلاء (ابو الخطاب) وهو محام مشهور . وللشاعر

مقطوعات كثيرة بطلها المحامي وهي تدلنا على مرح الشاعر وحبه للدعابة[١]

اذا استطعنا بعد هذا ان نرسم المعالم التاريخية للشاعر من خلال الاخبار فآن لنا ان نتوجه الى شعره لندرسه ونحلل اتجاهه واغراضه معتمدين في ذلك على ما جمعناه من مجلات وصحف عديدة حتى نتلمس روح الشاعر واحساسه من خلال ما سجلته قريحته • ومن المفيد جدا ان نمهد لذلك بكلمة قصيرة عن عصره لنربط هذا الشاعر وتلك العواطف بواقعها الذي عاشته ونمت فيه لنستشف مدى التطابق بين الشاعر وعصره وهذا ما سنحاول عرضه في الفصل القادم •

---

(١) أصل القصة أن أبا الخطاب كان في شبابه ذا دعاوى عريضة وله أشباه في التاريخ كأبي الخطاب ابن دحية الاندلسي وأبي الخطاب زعيم الفرقة الخطابية فكان يناقش أساتذته مناقشة حادة ويسخر من بعض القوانين ، والنتيجة الطبيعية في مثل هذا معلومة !

فأحب أصحابه ومحبوه ومنهم (شاعره الخاص) أن يداعبوه فقال الملاح :

أبا الخطاب أغرتك الاماني لذاك سقطت عند الامتحان
فلست بملتق والمجد يوماً كما لا يلتقي المتوازيان

ثم تدوركت القضية بشرط المحافظة على السكينة وأن لا يضع رجلاً على رجل قدام الاساتذة ولا يلوّح بسبحته أو يعبث بها • ولا يكرر ههههه ساخراً •• ! ورجع الى صديقه طالباً تلافي ما فات فان لمحيي الدين(اشارات) !

فارتجل له الملاح هذين البيتين :

أبا الخطاب! حققت الاماني لذاك نجحت عند الامتحان
براعتك التي لا شك فيها قضت أن يلتقي المتوازيان !

ومن هنا أولع الشاعر بأبي الخطاب فكان يتعقب أحواله وينظم لكل حال بيتين وربما نظم قصائد •••

ويقال ان في نية الاستاذ السمعاني جمعها ونشرها بعنوان(خطابيات الملاح) مع الرسوم طبعاً !••

عصـــــره

لم يكن آخر عصر دولة الأتراك وهو عصر الاتحاديين يقل ظلمـا وتعسفا مسلطين على الشعب العراقي بل انه كان أنكى على النفوس من أزمنته الأولى لانتشار الوعي ونهوض الهمم ، ولم تراع الطغمة المتغلبة على السلطة هذه النقطة الحساسة في الشعب انما استمرت في طيشها ومد نفوذها عـلى الانفس الحرة ووقفت امام كل الاصلاحات وكبتت صيحات الحـــرية والنضج ، وقد ساعد على استسلام الشعب العربي دخولها في حروب مستمرة مع الأجانب لرابطة الدين الذي كان هو الرابط القوي بين الحـــاكم والمحكومين الذين رأوا أنفسهم شديدى الصلة بها لاشتراك الجميـــع في الاسلام ونسوا تعسف حكامها لمدة قصيرة وجمعوا قواهم وســـاعدوها في رد هجومات الأعداء واعتبروا صنيعهم هذا واجبا يقتضيهالدين وانتصارا له. ولكن في الوقت نفسه كانت ركائز الحياة مهلهلة اذ أثرت الحـــرب في اقتصادهم وكشفت نوايا الأتراك في نشر اللغة التركية وقيام المدارس عـلى أساسها وعمّت الفوضى في الشعب وتلاشى الأمن والاستقرار ليحل محلـه النهب والسلب والرشوة ، وما كانت هذه الحروب لتطمس الحرية في نفس العراقي الذي أذلته القرون وأبعدته عن الحياة النبيلة وجعلت منه آلة طيعة في يد الآستانة ، ماكان الفرد العراقي الذي عرف بالثأر لشرفه المهدّم أن تقتل حروب اليونان ١٨٩٧م من نفسه ضياء الاصلاح الذي شامه في بعض الاقطار الاخرى بفضل الصحف التي انتشرت واصبحت تحمل اه الاخبار

بالاحداث التي تدور في انحاء العالم الفسيح .

وبتكاثر الضغط والجبروت وبتلمس الاحداث في الخـــارج أصبح العراقي ينشد الحرية وتعالت الصيحات منه تلو الصيحات يندد بالظالم حتى كان نتيجة لهذا كله الدستور ۱۹۰۸م الذي استبشر به الشعب ورأى فيـه الخلاص وحدّ الايدي العابثة ، واستمرت الايام والشعب قد بهره بريق الدستور ظانا فيه كل خير وصلاح ، فأطنب الشعراء في مدحه وأنزلوه من نفوسهم نزول المنقذ ، ولكن انى لهم ذلك ؟ وما الدستور الا مخـــدرات وسراب وكلمات جوفاء انخدع ببريقها الشعب فأقام الأفراح وقدّم التهاني وأنشد الشعر ، ولكن ظهرت الخدعة وبانت النوايا واضحة لأن الدستور كتب وأعطي ليلهي الناس فترة لا ليتمتعوا بتطبيقه ، وبقيت الفجوة متسعة بين تطبيقه والطرب لمنحه .

وجاءت كرّة ثانية من الحروب أشد من سابقتها وأعمق غورا وأفظع نتائج فالتف الشعب حول السلطنة كعادته وقدمت الفتاوى بوجوب نصرة الدولة واستمرت هذه الحروب فترة طويلة انتهت بالحرب العالمية الاولى (۱۹۱٤م) التي كان من نتائجها دخول العراق تحت النفـــوذ الانكليزي واندحار الاتراك ورجوعهم الى الآستانة .

هذه كارثة جديدة حلّت بالشعب العراقي الذي كان ينشد الاستقلال والحرية والذي اضناه سوء ادارة الولاة الاتراك وهو في هذا كله يجـــد متنفسا لآلامه ومصايبه لأن أواصر الدين قوية بينه وبين حاكميه ، لكنـه الآن أصبح في خطر أدهم وذبذبة مستمرة توقد في نفسه الحيرة على مجده السالف وما كانت عليه أرضه وسكانها من عزة وعظمة . وقد أصبح الان في يد حفنة لاتمتّ له بصلة ان لم نقل انها تمتّ له بصلة البغض والتحدي لأنه ساعد خصومها الأتراك وقدم كل ما له من قوة امام تسربها ودخولهـا والسيطرة على بلده ، اذ يراها العدو الألد لعدوه ودينه ، ولكن هل تجديه هذه التحسرات من حكام كفّار جاءوا ليحتلوا أرضه وقد فعلوا وفرضـوا نفوذهم ومدوا ظلهم على ربوع تربته الكريمة ، نعم لن تجـديه هـــذه

التحسرات التي ما أجدت مع الأتراك المسلمين ، وما على الشعب العراقي الذي وعى واقعه الا أن يقدّم الضحايا ويثور على المستعمرين ليبدد القيود ويتنسم نسيم الحرية .

وما اظن ان الشعب في هذه الآونة يحتاج لمدة طويلة ليعمّ الوعي في النفوس وتتسرب فكرة الحرية ومناشدة السلام في كل المجتمع ، لأنهم جميعا ادركوا نوايا السيطرة الانكليزية ، وقد ذاقوا من التعسف ألوانا ، وسلبت منهم خيراتهم وصلاحياتهم على يد ولاة الأتراك ، فمن الطبيعي أن تكون بذور الوعي والجهاد كامنة في نفوسهم لاتحتاج الى خلق وايجاد ، انما تحتاج الى من يوقدها ليتخلص من العدو الجديد ، ولكن تصلب المستعمر وعنفه ، واعتقاد بعض الافراد انه يملك قوة لاترد ضرب بها الاتراك وانتصر عليهم فمن أين لهم ان ينتصروا عليه ، فضعف هذا السير وقلل من نشاطه .

لكن من ناحية أخرى ساعد تغلغل الدين في بعض المناطق ، التي اعتبرت هذا المستعمر كافرا مستبدا ، ونبوع الفكرة القومية تعززها بعض القبائل التي ما عرفت الاستسلام يوما ، والتي آمنت انها خلقت لتعيش حرة كريمة ، كلّ هذا جعل الشعب العربي في العراق يقوم بالثورات وينتهز الفرص لاعلان استيائه ، وكان المستعمر بالمرصاد لكلّ هذا ، فقدمت الضحايا واحرقت القرى وحشدت السجون بالأنفس البريئة .

ورغم هذا كله ما كان العراقي ليستسلم اذ تزيده الايام قوة اخرى ، وفي تسرب الأخبار من الخارج يستمد شرعية ثورته فيستهين بكل ما من شأنه ان يعرقل سيره ويصد هجومه . وارتاعت بريطانيا لهذا وقررت انتخاب شخص عربي يسند اليه الحكم ، فكان فيصل الذي انتخب ليمثل العراق حكومة وشعبا .

كما سمحت بريطانيا لشعب العراق بتكوين برلمان ، واصبح الشعب العراقي يحكم من طرف احد ابناء العروبة ، كما اسندت الوزارة لأبناء الامة فكان في ذلك راحة نفسية وعلمية للشعب .

ولكن لو تعمقنا في هذا الحكم الجديد ـ الذي ابتهج بسرابه ـ لعلمنا ان سياسة الانكليز تمثلت في أشخاص قد انتخبوا لذلك وحدّ نشـــاطهم بانتشار المستشارين وما هؤلاء الملوك الذين تنعموا بعرش الدولة الا نسخ متشابهة غذاهم الاستعمار بروحه ومدّ فوق نفوذهم جبروته ورقابته فمن أين لهؤلاء ان كانوا منصفين ـ ان يقدموا طرق الخلاص للشعب ومن اين لهم ان يصلحوا المفاسد المتفشية انما على العكس تكوّنت طبقة حاكمـة ، التف حولها كثير من المتملقين الذين تهمهم مصالحهم الفردية وبقي الشعب في زوايا النسيان تعمّه الفوضى وتنتابه الأمراض المتنوعة ويتســـرب بين جنباته الجهل والتنافر ...

ولست أنكر بحال من الاحوال ان الحكومة الجديدة كانت أخـف وطأة على الشعب لان نفوذ الانكليز لم يكن مسلطا على الشعب مباشرة انما كان يتخذفي ذلك اقنعة متعددة الامر الذى جعل البعض يرى ان الملك هو المنقذ الوحيد للبلاد ، أما المستشارون فلم يفهم حقيقتهم الا الطبقة الواعيـة التي أدركت انهم اصحاب النفوذ واهل السلطة أما الـوزراء والملك فلعب صغيرة يديرها الانكليز بأيدي مستشاريه .

ومن المؤسف اذ نلاحظ ان هذه الفئة الواعية التي تجلى لها الخطر قد استميلت بالوظائف والتبجيل فسدل على بصيرتها غشاء كثيف حتـــى انقلب بعضهم الى متنكر لقوميته ورأى الخير كله في الحكم الجديد والوزراء الذين تغذيهم انكلترا بأوامرها . وهكذا كانت كل مشاريع الاصـــلاح محدودة ، اذ تصدر الخيرات والاموال الى انكلترا واسواقها التجـارية ، ويستقل بالبقية الباقية افراد قلائل ، لهم صلة ملق او وظيفة بالحفنـــة الحاكمة ، ويبقى الشعب في تناحره وتأخره مسلوب القوى فاقد الامكانيات وكلما ناشد المساواة والعدالة وندد بالرشوة والطبقية أوجد الحاكم نقطة خلاف وبغض يبثها بين أفراد الشعب ليتناحروا حولها وتلهيهـم عـــن اغراضهم ، فكثيرا ما كانت تشتد النزعات المذهبية والخلافات الدينية وتلتهب نار الفتنة ليستضيء بقبسها الوزراء .. ولكن ما خلق الفرد العـــربي في

العراق ، يتلقى الاهانة ويصبر على الضيم وهو الأبيّ الغيور على كرامته وأرضه ، فهو الذي حفل تاريخه بالمجد والبطولة ، وان ألهته هذه المنازعات السيئة النية فترة فما ذلك الا من باب سبر الحكومة واختبار نواياها ، التي غفلت عن ان ارادة الشعوب لاتقهر وان الانسان هو الانسان في كل مكان لايستسلم للظلم الا لمدة قصيرة يستمد فيها انفاسه ، ويبث فيها نواميس الوعي ليطرد من سلبه حقه ويقف في وجه الطغيان يطيح صروحه لينشر مكانه الحرية والاستقلال .. التي سلبت منه قرونا فأورثته النقمة وكوّنت في نفسه الحماس وحب المقاومة ..

ولم تكن الحكومة في غفلة عن هذا بل كانت تتعقب الزوايا التي شع فيها نور الحرية لتخنقها في مهدها وشردت ونفت من حدثته نفسه بالحرية والاستقلال ـ تحت ستار انتشار الامن ـ فزاد هذا في نقمة الشعب وألهب في ضميره نار الحقد والكراهية واصبح يدمدم ويغلي نقمة على الاذناب الذين تنكروا لمبادئهم وأصلهم العربي . وانساقوا في تيار الاجنبي يخدمون ركابه ويتذللون على أعتابه ، ليمنحهم المناصب ويقربهم من نفسه ، وقد نسوا ان ذلك حق لهم لايحتاج لتحقيقه التذلل والزلفى ، ولو ساندوا اخوانهم لتمتعوا جميعا بالحرية والاستقرار ، ولكن كيف نستطيع ان نبعد من أي مجتمع كان نفوسا خلقت لتعبد الذل وتتملق ذوى السلطان ، وهؤلاء هم الذين تجب مكافحتهم قبل الاستعمار نفسه ، فهم اتباعه وهم الذين يضيئون له السبل ليتسرب فيها ، وهم الساعد القوي الذي يعتمد عليه في بزّ الاموال وفرض الضرائب وتلقي الاخبار .. ولكن الى متى تبقى هذه الطبقة القليلة تنعم بالخيرات غارقة فيها الى آذانها ، التي سدّت عن صرخات الشعب البائس ، الى متى تستسلم الامة الى هذا كله وتقنع بنصيبها من التشرد والضيعة وهي التي تقوم عليها الدولة وتبنى عليها الحكومة ومهما قويت السلطة ، ومهما تعسف أذنابها فلا بدّ أن تزيحهم الايدي الأبية ، ولا بد أن يثأر الشعب لكرامته المدوسة ، وحقوقه المهضومة ، وخيراته المسلوبة خاصة اذا تهللت الوجوه بالبشر والخير في مناطق أخرى بفضل

جهادها وصمودها ضد الاستعمار وتواردت الاخبار بذلك ، نعم لابد ان يستجيب الضمير الحي للاستقلال والحرية .

لقد ثارت العراق واعلنت صرخاتها في دويّ المدافع وهتافات الشعب عندما أطاحت بالعرش وكانت ثورتها قوية وتنكيلها بالأسرة المالكة وأتباعها أقوى وأشد اذ نتجت هذه الشدة وتلك القوة مع الايام ، لان نفس الشعب جمحت وكبتت زمنا طويلا جدا ، حتى كان الانفجار الذى تأججت نيرانه صبيحة الرابع عشر من تموز (جويلية) ١٩٥٨م .

هذه الحقبة التاريخية التي لخصتها بايجاز وهي مديدة طويلة ، حافلة بالاحداث السياسية والاجتماعية ... والتي اوجزت فيها القول هنا لانني ما كنت مؤرخا انما همّي ان استعرض أهم الاحداث التي عاشتها هذه الحقبة ، والتي ولد ونما فيها شاعرنا .

وعساي ان استعرض حوادث اخرى جرت خارج تربة العراق عندما أفصل شعره لانني سوف أرى الشاعر يخرق الحدود ويهتم بقضايا هامة ألهمته أشعارا حماسية كثيرة كما سوف يتضح لنا ذلك في الفصول القادمة .

شـــاعر

آن لي الآن ان اتجه بحديثي الى الشعر وقبل ان يأخذني الحديث حوله أريد ان أرسم خطوطا عامة بأن أقول ان الشاعر كان جياش العاطفة فاضت قريحته بأشعار كثيرة فتخطى كل المواضيع ونظم الشعر في كل ما يختلج في نفسه ويختمر في ذهنه فقد حدثني بذلك عندما قال ، كلمـــا تفاعلت نفسي وتجاوبت مع أي حدث قلت فيـــه الشـــعر •• واذا كنت انا لم استقص كل شعره فليس لانه يدور فيما جمعت فقط او فيما سيدور حديثي حوله ، فالغزل مثلا الذى لم أوفق في العثور على بعض أبيات فيـه قد شغل من نفسه ومن أشعاره مكانة • وطالبت الشاعر بعض أبيات لـه في الغزل ، لكنه عارض في ذلك وحاولت اقناعه بضرورة التعرض لهـذا النوع، مادام ان هذا القسم سوف يبرز يوما في ديوانه لكنه أصر على ذلك وقال : ان هذا الضرب وان كان يمثل جانبا مهما في حياتي ، فليس لـه صدى في حياة أمتنا • وانني ان سمحت لنفسي تسجيله استجابة لعـواطفي آنذاك كانسان ، فلا ارتضيه حاليا وقد اضطر الى حذف بعضه من ديواني•

ومن ناحية أخرى لم استطع ان أجمع اشعاره التي عاشت في العهد التركي وان كنت مؤمنا ان له أشعارا كثيرة تحكي تلك الفترة في حيويتها ونكباتها وليس أدل على ذلك ما جاء في احدى مقالاته (••• فعن ببـالي بيت من قصيدة نظمتها في عهد الترك ثم غالها غول التجسس وهي :

ما زالت الأيام تبكي دولـة   كانت سواد عيونها سوداها[1]

فهذه النهائية التي غالها غول التجسس في العصر التـركي لابد ان تكون لها نظائر كثيرة لكنني ما عثرت عليها في جمعي.[2]

ولهذه الأسباب اختار ان لا أقسم شعره حسب الفترات انما اسـير في ذلك على استنطاق الشعر والسير مع الحوادث الناطقة فيه ، هذا وانني أقول منذ البدء ان أغلب ما جمعته يمثل تيارا سياسيا قوميا يتجـول بين الاقطار العربية ليستمد منها ركائزه وجذوره . وان كان الشـعر الذي جمعته يرتبط بتواريخ نشره لكنني لا اطمئن لهذه التـواريخ اذ كثـيرا ما تنشر القصيدة بعد قولها بسنوات عديدة كقصيدته (لا عرب بغـير فلسطين ولا فلسطين بغير عرب) التي أنشدها سنة ١٩٣٨م ولم تنشـر الا سنة ١٩٤٤م لهذا انا اطمئن الى روح القصيدة وما تمثله من احـداث أكثر من اطمئناني الى تاريخ نشرها .

---

(١) البلاد العدد ٥٦ سنة ١٩٣٠ . قال الاستاذ كان مطلع القصيدة:

يا امة نامت وطال دجاها   واستعذبت في نومهـا رؤياها

ومما أحفظه منها :

كم عالم فيها به الشمس اهتدت   وترجلت عن افقهـا لثواها

والبـدر عفـر وجهه في تربها   حتى تخدش وجهه بذراهـا

ونزل مطر غزير وأنا أنظم فأحدث فقاقيع فلاح لي هذا المعنى العجيب؟

وكأنها مطرت باسهمها السـما   وكأنما زهر النجوم حجـاها

(٢) وقد صح استنتاجي عندما عثرت على ثمانية أناشيد وطنية نظمها في العهد التركي ذكرها الاستاذ محمد سعيد الجليلي في كتاب الأناشـيد الوطنية ١٩٥٣ مع مجموعة اخرى قال عنها (وكانت الحكومة التركية قد نفذت وعدها بشأن جعل التدريس في المدارس الابتدائية باللغة العربيـة فاهتبل هؤلاء الكرام الفرصة لقلب الأناشـيد التركية التي كان مقررا انشادها في المدارس آنذاك الى أناشيد عربية حماسية قومية ...)

ولا أستطيع أن أجعل هذه القصائد ضربا خاصا ومهما يكن من أمر فصلتها متينة بفكرته القومية الاصلاحية ، ومنها على لحن (جاء وفي راحته كأس الطلاء ، نغمها من مقام نوى) وهذا مطلعها :

يا قومنا شدّوا المطايا للعلى   وسابقوا الى المعـالي الدولا

واذا قلت سابقا ان صاحبنا يستجيب في شعره الى كل خوالج نفسه وتدفق عواطفه فاني أقول الان ان شعره مهما كانت أغراضه لايخلو من الروح الثورية والنغمة الحماسية والنزعة الاصلاحية والعقيدة الاسلامية المتينة وكشف نوايا المستعمر وتقديم الصورة الواضحة عن حالة الشعب وما يلاقيه من جهل وارهاق وصغار :

صغار وارهاق وجهل يبثّه (اولو العلم) عمدا ثمّ حكم مزعزع

لهذا لا أكون بعيدا عن الحقيقة أن جعلت شعره يقدم الصورة الواضحة للعصر بما في ذلك الحاكم والمحكوم ، وبما في ذلك من أوضاع اجتماعية وسياسية واقتصادية .. وكأني بالشاعر قطع على نفسه عهدا أن يرعى هذه الامة بصرخاته ودويه حتى يراها حرة كريمة ، وان يقدم لها العظات والارشاد كلما واتته الفرصة بكل جرأة وحيوية ، وهو قبل أن يقدم هذه العواطف يخمّرها في نفسه ويتفاعل معها وبعد أن تهضم هذه الاحاسيس والصور في أعماق وجدانه ، يبثها بين الطبقات ناضجة مكتملة الخلقة ، فتطرب لها النفوس لانها تجد فيها واقعها ومشاكلها . وليس معنى هذا ان الشاعر كان التزاميا في شعره انما كانت مآسي قومه ونكبات وطنه هي شغله الشاغل يذيب فيها روحه وتستجيب لها عواطفه ، لهذا مهما حاولت ان أقسم هذا الشعر فانني لن أستطيع ان انتزع منه الروح القومية وفكرة الاصلاح وبذور النصح والارشاد التي يقدمها الشاعر كل مرة .

وليتني أطلع على ديوانه كله ، حتى أدعم هذا الرأي ، رغم اني افترض بكل اطمئنان ان كل شعره ـ ما جمعت وما لم أجمع ـ لايخلو بحال من الاحوال من هذا الوعي القومي والنبرة السياسية وتلمس الشاعر لأمته وحثها على الثبات وتذكيرها بأمجادها وتاريخها الحافل بالبطولات لأنني أراه كغيره من الشعراء تجرع عسف المستعمر والحاكم فاحتكت نفسه بهذه الاشياء واوجدته رجلا حساسا يتلهى بمصايب قومه فيذرف الدمع على الشهداء منهم ، ويحث الاحياء على النهوض والمثابرة في الطلب

بحقهم وما كان شعره ينحصر بمنطقة معينة أو اقليم عربي واحد انما هو يستمد من الخارج قبسا من النور يدعم به خواطر أبناء شعبه وينبههم لما يدور حولهم من حرية وطلب لها .

وعساي أن أجد في شعره مصداقا لهذه الكلمات ، فأقسم شعره الى رافدين أساسيين أولهما رافد موجه الى المستعمر واذنابه والثاني تنعكس فيه صور الشعب ومشاكله والى جانب هذا وذاك نفثات أخرى بكى فيها الشاعر بعض الشهداء الذين تعرضوا لمشانق المستعمر ونواياه[1] . أو بكى جماعة كان فضلهم على العرب وآدابهم فضلا كبيرا[2] . وفي هذا كله تجد الشاعر يستنطق من الاحداث صورا يعكس عليها المجتمع ويتخيله من بعض الزوايا ، ثم تجده يتنقل في بعض أشعاره ليشارك باحساسه وعواطفه في كارثة فلسطين[3] أو في لهيب الحرب العالمية الثانية[4] .

---

(١) قصيدته اللامية ــ مشانق الأمس مناصب اليوم ــ أنشدها في الحفل الذي اقيم يوم ٦ أيار ١٩٣٠ في قاعة رويال ببغداد لاحياء ذكرى الشهداء العرب الذين قتلهم جمال باشا في سوريا للروح الاصلاحية التي قاموا بها .

(٢) قصيدته فقيد الضاد أحمد تيمور باشا ــ التي أنشدها بمناسبة مرور أربعين يوما على وفاته ، وهمزيته التي رثى بها الشاعر الكاظمي في حفلة التأبين ١٩٣٥ ــ عبرة الدهر في حياة الاعاظم ــ

(٣) رائيته التي ألقاها في القاهرة سنة ١٩٣٨ ــ لا عرب بغير فلسطين ولا فلسطين بغير عرب ــ

(٤) معلقة الحرب، القصيدة الرائية الطويلة ، البلاد ١٩٤٤ ومطلعها:
ألا . قم فادع آدم ! بالثبور   فولدك مشرفون على الدثور

الشعر والحكومة

كان شاعرنا يعيش مع شعبه في أحاسيسه ونغماته الحزينة ، يبحث له عن طرق الخلاص في كل مكان فيقدم صورا ناطقة له تعمّها العاطفـة الصادقة .

وفي تقديم هذه الصور يكشف النقاب عن نوايا المستعمر ، الـذي يتستر وراء الزخارف والسور ، وهو يدعي الاصلاح ويعلن في النـاس بواسطة اعضاده انه جاء مصلحا لما أفسده الاتراك ، جاء لينشر حضـارة ويعمم الامن ، فوعى الشاعر هذه العناوين الخلابة ولـم يتخذهـا ركيزة لمدح هؤلاء ، انما وجه من خلالها سهاما راشقة لأولئك المدعين الاصلاح ، فيستغل فرصة استقبال عاهل البلجيك مثلا ليطلعه على ما عمّ في البلد وما اقترفه هذا المستعمر من ترّهات جعلت الشعب يبكي عهد الاتراك ويحن اليه ويأسف لتلاشي سلطانهم واندحار جيوشهم :

ما ان أجشّمه خلاص عراقنـا ... من موبقـات سياسة التشريك
لـكن أحمّله شـهادة عادل ... برئت شـهادته من التشـكيك
عن موطن أنسـاه عهد مظلم ... ارهاق عهـد سياسـة التتريك
قالوا اتيناكم لفـكّ قيـودكم ... فاذا الفكاك سياسة التفـكيك
أمن الحضارة يا مليك ! مرابع ... اسيادها في ذلـة الصـعلوك
لا يخدعنك من ستور زخـرف ... خلف الستور فضائح المهتـوك

الخير في هذي البــلاد مقسم ... بين (المسائر) من سميث وكوك
والعلم في أوطاننــا متقهقــر ... مغمورة ارجـاؤه بالنــوك[1]

وليس هذا فقط ما فعله الحاكم الباغي ، ولم تكن هذه هي الفرصة الوحيدة ليندد الشاعر بالمستعمر في ظلمه وجبروته معلنا نواياه فهو عندما استقبل المعتمد السامي الجديد ، ما قدّم له الولاء والطاعة ولا أطنب في تبيان فضله ، انما أملى عليه ما اقترفه سابقوه وكيف ان الحكومة المركزية في بريطانيا ـ التي تبث أوامرها في العراق بواسطة رجالها ـ في غفلة عن مصالح هذا الشعب مستعرضا سابقيه من المعتمــدين وكيف كانوا على جبروتهم وثقتهم العمياء لايستجيبون لنداء الحق ونداء الضمير ، وكأن في آذانهم وقرا ، مستندين في ذلك على بزّ أموال الشعب وسلب خـيراته وابقائه ينوء بأثقال كبيرة حتى اشتكى خرير المياه منها ، وهم في هذا كله يدّعون الحضارة وهم من أهلها ، وقد انتشروا بـين أظهرنا وغرزوا في أرضنا الكريمة بيضهم :

أرى كلّ صوت عند انكلترا ركزا ... وان بلغت اصوات صارخنا الجوزا
فان كـان في الآذان وقر فما الذي ... دهى أعينا منهم فلا تفقــه الغمزا
اذا ما طلبنــا ان يفوهوا بصالح ... عرا بكم الا اذا حاولــوا نبــزا
مشاعرهم مســدودة دون حقّنا ... فلا نرتجي منهم لتحقيقـــه وعزا
مضى كوكس مـع دوبس وكليتن ... وها نحن نبغي ان نواجـه همفرزا

◉ ◉

أ (همفرز)! ما وجه الثرى انت واطيء ... ولكن دماء احدثت في الثرى هزّا
وكيف ينام المـرء ملء جفـــونه ... وكيف وخزت في العين شائكة وخزا
تذبذب حكم في شواطيء دجلـــة ... فلست بدار حكمهنّ لمن يعزى ؟
على ضفتيها في النفــوذ تصــادم ... كما اصطدمت امواجها اذ بغت نشزا
ينوء باثقال الظــلامات متنهــا ... اذا حفزت من بعضهم سفنها حفزا

---

(١) البلاد العدد ١١٠ سنة ١٩٣٠ .

وليس خرير الماء الا شكاية ... وقد يشتكي الرزء (الجماد) اذا يرزا
وقالوا لنا انا مهاد حضارة ... فما بالهم لم يتركوا للورى عزا ؟
لقد اكلوا خيراتنا بجرادهم ... كما غرزوا في ارضنا بيضه غرزا[1]

واذا التفت الشاعر الى جانب آخر من الحكومة رأى الوزراء الذين علق الشعب الآمال عليهم ، وأيقن انهم سوف يقودونه للخلاص فمنحهم ثقته لكنهم استغلوا هذه المناصب لصالحهم واتخذوها طريقا لكسب الاموال وتكديسها واسفر وجههم عما يعانيه أخوانهم من محن ومصايب فيلحوهم الشاعر ويعلن مخالفتهم للوعود

وزارة عمال رجونا رشادها ... اذا نحن عمال وهم قد ترفعوا
الى جيبهم ما راكب البحر جالب ... وفي بطنهم ما زارع الأرض يزرع
فأين اقاويل يضج بها الفضا ... بها وعدوا ان هم بحكم تمتعوا
أقبل استلام الحكم اسفر وجهها ... وبعد استلام الأمر قامت تقنع
كعهدك بالاصحاب يبدون نخوة ... لمرتقبيهم قبل ان يتربعوا
تنوعت الألفاظ من خطبائهم ... وما غير الاستعباد يعني التنوع
بساطور جزار تشظى لحومنا ... فان سئلوا قالوا طبيب ومبضع !
ويسقون من لاحت لهم منه غيرة ... نقيعا به من ذكرها يتهوع !
وعن لغة القرآن ان كنت سائلا ... فأخبارها تدمي الفؤاد وتوجع[2]

ومن زاوية أخرى اعتبر الشاعر هؤلاء النواب الذين يركضون وراء الانتخاب والفوز به ، وهو في الحقيقة انتخاب وهم يركضون وراء السراب وما هم بفاعلين شيئا لانهم وان كانوا منصفين مخلصين فسلطانهم محدود. وتصرفاتهم محاطة بالسيطرة الاجنبية وهي مملاة عليهم من الخارج البعيد ، ولا فائدة من هذا المجلس أصلا ما دامت الحرية فيه مسلوبة وهو قائم على التهديد والارهاب .

---

(١) البلاد العدد ٢٨ سنة ١٩٢٩ .
(١) البلاد العدد ٧١ سنة ١٩٣٠ .

أي نفع في مجلس النـوّاب ؟ بعد لعب في منهج الانتخاب

● ●

ايها الراكضون خلف انتخاب انما تركضون خلف سراب

انتخاب في اصله انتحاب زاده نقطة ونيم الذباب !

لا أمانا في مجلس قائم فوق ضروب التهديد والارهاب

فيه تختال للبلاد حياة وتساق البلاد نحو الخراب

أيّ فضل لفتية ما لهم من هدف غير خدمة الانتداب(٢)

وتأتي الأخبار الى الشاعر تحمل اليه حركة سعد زغلول التحررية في مصر فتلهب هذه الحركة بما فيها من ديمومة عواطف الشاعر فيباركها ويستاء من تخلف العراق عن نهضة الشرق العارمة ، وفي هذا الوقت نفسه كان قد تولى وزارة العراق وزير جديد فيرجو منه الشاعر أن ينهض بالأمة ليلحقها بالشرق العربي الذي دبّت فيه اليقظة والثورة والمطالبة بحقه .

وهكذا نراه ما استقبل هذا الوزير الجديد بالمدح والاطراء انما انزله منزلة سعد من مصر ، وليس هذا بصعب على الوزير الجديد ولا يتطلب منه الا الاخلاص لشعبه ، فبهذا يحقق ما لا يحققه الخيل والجند .

تململ جسم الشرق بعد هجوعه حليف قماط ملّ هجعته المهد

● ●

أما من فتى بالقطر ينهض للعلى كما مصر للعلياء انهضها سعد

قضى نحبه لكن تقدّم بعده أسود وغى اعمالهم مثلهم أسد

وربّ حياة كان مبعثها الردى كما اتقدت نار وقد قصم الزند

ألا انّ اخلاص الرجال لشعبهم ليفعل ما لا تفعل الخيل والجند

اذا ما احاطت بالنفوس كرامة فما ضرها ان لا يحيط بها جلد

اذا عريت نفس الفتى عن ابائها فذلك مثل الجسم لم يكسه برد

---

(٢) البلاد العدد ٢٤٠ سنة ١٩٣٠

وخير علاج للبــلاد اشــعة   فقد نهك الأجسام ان كثر (الفصد)
طريقان في الدنيا اعتزاز وذلــة   ولا يستوي في الرتبة الحر والعبد[1]

واذا أعلنت بريطانيا اسما جديدا لمندوبها تمويها على الشــعب وزيادة في اضلاله ماكان شاعرنا ليسكت ولا تخفى عليــه هذه التضليلات واعتبر ذلك من تلاعب الالفاظ وتغيير الالقاب لا في السياسة ولا في الاتجاه..

ولا خلاص للبلاد ما دامت بريطانيا جاثمة على أرضها سواء بسفيرها أو مندوبها ولو أبقت عصفورا فذلك يمثلها ويرمز لسيادتها ويخوّل لهــا الحق في البقاء ثم هو يخشى ان يضيف هذا اللقب الجديد على ممثــل بريطانيا زيادة في النفوذ فان كان المستشار هو الوزير سابقا في ســلطته فيخشى أن يصبح السفير أميرا .

أبشروا ! انني غدوت بشــيرا   صار منــدوب الانكليز ســفيرا
كــلّ يوم يرن في الجــو لفظ   حامل فوق طوقــه تفســيرا
واذا كــان في البــلاد شــذوذ   كان حظ الألفــاظ منه وفــيرا
أترى تغيير العنــاوين يجــدي   والمضــامين لم تحــز تغيرا
مثلما قيــل للضــرير بصــير   وهو ما زال قيد بؤس ضــريرا
لــذّ طعم العــراق في فم قــوم   أكلــوه مخمّرا وفطــيرا !
والأداني هـــم الألى انضــجوه   للأقاصي اذ افســدوا التــدبيرا
واذا ما سألت عن صورة الحــال   تلوّوا وشــوهوا التصــويرا
انّ قطــر العراق رغــم طــلاء   ســوف يبقى الى زمان اســيرا
سوف نبقى لهـــم عبيداً أرقــــاء ولـــو أبقـوا عنــدنا عصــفورا
قبل ذا قيل مستشــار ولــكن   أصبح المستشــار فينــا وزيرا
انني اخشـــى ان يقال ســفير   ثمّ معناه ان يكــون امــيرا[1]

كل هذا التلاعب في السياسة وتغيير اتجاهاتها وتخدير الشعب بهذه

---

(١) البلاد ١١٧ سنة ١٩٣٠
(٢) البلاد العدد ٢١٠ (١٩٣٠) .

الصور الخلابة من التلون والتلوي هو الذي جعل الحكم ضعيفا هزيلا يبهرك مظهره لكنه سراب خداع تكشف لك الشمس عن خفايا الظلم والتعسف فيه وما كان هؤلاء الساسة أجدر بالحكم من أبناء الشعب ولم يفوقوهم بفضل أو بعلم لكنهم سلبوا منهم النفوذ والحقوق ، بوعودهم الكاذبة وأمانيهم الخدّاعة .

وما سبقوا بعلم او بفضل	ولا جري بميدان الفهوم
ولكن بالتلوّن والتلوّي	قد استولوا على الغرض المروم
أكل ضحى نرى في الأمر فتقا ؟	وتطليه السياسة بالشحوم
فلا يأتي عليه الظهر الا	تجلّى الشحم عن حال وخيم
يقيم مكانه حتى غداة	ويظهر آخر غير المقيم
الى ان صار كالغربال حكم	مهرّى الستر ممزوق الأديم
وسمسار الأجانب طلع نحس	وان حلوه انواع الوسوم[1]

وأوجد المستعمر من أبناء الشعب مساعدين ومناصرين فأغراهم بالاموال والمناصب فكانوا أشد نكالا على الامة من المستعمر نفسه ، وقد هاجمهم الشاعر وتعجب من حماسهم للحاكم الاجنبي الذى ما كان ليدفع عن شرفهم العار ، ثم تعجب لحماسهم الذي تأجج وفاق مدافعة الفرد عن حسبه فقال .

وأنكى من الغربي في الشرق فتية	الى حضنه انحازوا وبالغدر اولعوا
يذودون عن حكم الغريب بقوّة	بما ليس عن احسابه المرء يدفع
اذا كان داء المرء داخل جسمه	فقطع مكان الداء للجسم انفع
سواعد من قومي اراها كثيرة	تلاعب فيها للسياسة اصبع[2]

وقال مرة أخرى :

---

(١) البلاد العدد الاول ١٩٢٩ .

(٢) البلاد العدد ٧١ (١٩٣٠)م .

ولا لـــوم على وغـــد لئـــيم   اذا ما انحـاز للوغـــد اللئيم [٣]

●●

ما شـــقاء البـلاد الا من الأذناب   ويل لمعشـــــر الأذناب [٤]

وليس أدل على هؤلاء الأذناب الذين قاموا بدور الجاسوسية لفائدة استعمر الأجنبي ، وقد أحسن الشاعر تصويرهم • وذكرنا بحـــادثة تاريخية هائلة وما أكثر ما استشهد بحـوادث تاريخية ، وحـــق لـــه أن يذكرنا بهـــا

أمسى هناك ـ ابو رغال ـ خائبـــا   اذ خاب ذاك العسكر الجـــرار
دل الغـــريب على عـوار بلاده   فالنـــذل في شرف البـــلاد عوار
ان كان ثم ابو رغـــال واحـــد   فاليوم آباء الـــرغال كثـــار [٥]

هذه الابيات من قصيدة للشاعر انشدها في حفلة المولد النبـــوي الشريف التي أقامتها جمعية الهداية الاسلامية وقد هزت الذكرى مشاعره وعواطفه فاستلهم منها العبرة واتخذها نبراسا لبث آلامه ودعامة يرتكز عليها في حث الحاضرين على المقاومة مقتدين في ذلك بالنبي العظيم ، وقد زج في القصيدة صورا عن شعبه كانت منها الابيات السابقة التي مثلت أبا رغال وهو رجل عربي كان عينا للحبشة وقد رجم العرب قبره كلما مروا عليه ، فذكرنا الشاعر بهذه القصة التاريخية ، وقد كان هذا الرجل فريد زمانه أما الان فأمثاله كثيرون •

وأشعاره كثيرة كان يندد فيها بسماسرة الشعوب وأذناب الاستعمار ، وكان يرى أن خطرهم أنكى وأعمق من المستعمرين ، بل انه يؤمن أكثر من هذا ، ان خطط المستعمر كلها تعتمد وتستمد قوتها من الاخبار التي قدمها هؤلاء الذين استعبدوا بدراهم عديدة ليقدموا الأخبار •••

---

(٣) البلاد العدد الاول ١٩٢٩م •
(٤) الجهاد ـ صدرت تعويضا عن البلاد بمناسبة تعطيلها ـ العدد ٢٤٠ (١٩٣٠) •
(٥) الجهاد ـ عوضا عن البلاد ـ العدد ٢٢٢ (١٩٣٠)م •

الشاعر لهؤلاء الحكام في عسفهم واستبدادهم ، وما قام به من كشف

واذا قصدت في هذا الفصل الحديث عن النفثات الحارة التي قدمها لأفنعتهم واعلان مساوئهم فمن الطريف ان نذكر هذه القصة المخجلة والمضحكة في آن واحد التي تناولها الشاعر .

فبعد أن عمد المستشار (كوك) الى بزّ أموال الشعب وسلب خيراتهم وتصديرها لبريطانيا عمد الى بطن الارض لينهبها ، وما كفته ما تحمله الأرض فوق وجهها بل تخطى ذلك الى الآثار يسرقها فيبعثها خالصة مخلصة لأسواق انكلترا لتباع هناك . فهذه الصورة تمثل بشاعة هذا المستعمر الذي أراد ان يطمس آثار هذه الدولة ويسلبها كل خيراتها حتى الباطنية لينسيها مجدها ويهدم صرح ماضيها ، ويالها من شناعة لم يغفل عنها الشاعر ، بل صورها لنا في أحسن صورة تعمها السخرية والاستهزاء بهذا الذي بعث لينشر الامن ويبث الاستقرار ، واذا به يتلبس في واضحة النهار بسرقة واختلاس ما في باطن الارض من كنوز وذخائر ..

وتمثل هذه القصيدة صورة حية للمستشار وحقيقته ، فهو الذي يتمتع بالنفوذ المطلق الذي استغله في اذلال افراد الشعب المتملقين ، والذين لايعصون له أمرا ، وهو الصادق والفطن وهو الحصن الذي يلجأ اليه وهو صاحب الامر والنهي في البلد فلا تقضى الامور الاّ بالارتماء على أقدامه والتمرغ في حضرته ، ثم انه لم يكتف بهذه الصفات التي فرضها على الأحياء بل عمم سطوته وقرصنته فشملت الارض وذلك قاسم مشترك بين كل مستشار ، لكنه تحداهم جميعا ومدّ يده لباطن الارض كل ذلك باسم الاستشارة ومنصبه الوفير لذلك كانت للاستشارة فنون ويالها من فنون

للاستشارة في العراق فنون	جلى البدائع سرها المكنون
يا ايها المرتاد علم الكيميا	أقصر فأنت الخاسر المغبون
ما لم تنل من مستشار حظوة	من بعدها كلّ الأمور تهون
لا تخش حينئذ حكومة حاكم	أبدا فأنت على الحياة أمين

المستشار له النفوذ حقيقة ونفوذ غير المستشار ظنون

● ●

فالجأ لحضن المستشار فانه حصن اذا جدّ البلاء حصين
وتش بين يديه ثمّ تمرغن فوق الثرى فالمستشار حنون !
المستشار هو الصدوق ، وكاذب من قال ان المستشار يمين
واذا بدت منه جهالة جاهل فقل الجهول أنا وذاك فطين !

● ●

المستشار نموذج لعدالة فاذا يقول فقوله قانون !
المستشار من المهيمن منحة ما حلّ في وطن فذاك مصون
كالسيد المفضال (كوك) من وعت ايامه ما لاتعيه قرون
ما أشبعته من البلاد ظهورها حتى أمدّته لهنّ بطون
ما خانت الأرض الخؤون امانة ويخونها للحارسين أمين !
هذا الذي ظفرت به الأيدي غلا ثمنا فكيف الغائب المخزون ؟
ميراث آباء حبوه ولدهم شلّت يد الخوّان حين تخون[1]

هذي وقفات قصيرة وقفناها الى جانب الشاعر وهو يناقش الاستعمار ويراقب ترهاته ويلحو ويؤنب هؤلاء الاشخاص الذين أشبعوا الشعب وتربته من التعسف والظلم تحت عنوان الحضارة والمدنية والعدالة ما أبعدهم عن هذا كله من خلال ما اقترفوا •

وبهذه الوقفات أرجو اني قد وفيت هذا الفصل حقه لأتدرج منه الى الفصل الثاني الذى وجّه فيه الشاعر قوته الى الشعب يدفعه الى الثورة والمطالبة بحقه •

---

(١) البلاد العدد ١٨١ سنة ١٩٣٠

الشعر والشعب

ان الحكم الاجنبي الذي غرز عروقه في العراق وتلذذ بخـــيراته ونهب أمواله ، ماكان يفكر يوما في التخلي عن هذه الارض الخصـــبة والنعم الخالصة بل أوجد من أسواقها تجارة لبضاعته ومن بعض الافراد أذنابا يتلمقونه ، همهم في ذلك مصالحهم الفردية ورغباتهم الخاصة فكان النفوذ والحكم مقسما بين هؤلاء واولئك ، نعم كانت المصالح مقتصرة على عدد محدود وعامة الشعب ينوء بالمصايب والتعسف •

ولما كانت الحكومات أجنبية ، أو هي متمثلة في أبناء الشعب غـير المخلصين ، المحدودى المسؤولية ، كانت البلاد محرومة من الاســتقرار والعدل بعيدة عن الرقي ، وأصبح الجهل والنهب متفشيين فيها ، وتنعكس هذه الترهات على الشعب نفسه ، فتنشأ بين الافراد الخصومات والمصارعات يغذيهما الحاكم الاجنبي لينعم بالراحة عندما يلهي الشعب بالتخاصم الداخلى وسطو الافراد على بعضهم •

وبهذه الاشياء كلها لايستطيع الشعب الذى يعيش في ضـــنك من العيش وتعمه التفرقة ويسوده الجهل والتناحر ، لايستطيع أن كانت هذه حالته أن ينتظم قوة واحدة في وجه الباغي المتجبر ، بل أنكى من هذا أن تجد البعض بحكم هذه الظروف من الخذلان والتذبذب النفسي يتنكـر لمبادئه وينسلخ عن مقومات أمته وينجرف وراء هذا السيل الهدام تلهيـه

طرق العيش الصعبة والجري وراء القوت عن الالتفات بعضهم وراء بعض ، ليكون وحدة صلبة لتقف بمطالبها بقوة وايمان ومع الايام يفقد بعض الافراد ماكان يعتز به آباؤه من مجد أثيل ولا يرى ضيرا في هذا الحكم الاجنبي ، خاصة بعض الشباب الذين تغذوا بمقومات الاجنبي والذي أصبح يرى فيها كل الخير وهي نبراس الحضارة والتمدن ، والى جانب هذا جماعة كانت قد تمتعت في ظل هذا الحكم ببعض النفوذ فتغافلت عن رسالتها في الحياة ، وأزالت من نفسها كلمات الحرية والاستقلال والكرامة وما كانت ترى في داخل نفسها فرقا بينها وبين أضدادها •

ولكن تلك الجذوة الصالحة التي منعتها صلابتها وايمانها بقوميتها ، ما كان ليؤثر فيها هذا التلاعب في السياسة والكلمات البراقة الجوفاء لانها ادركت وآمنت أن حاكمها ليس من بلدتها بجسمه أو بروحه فهو لن يفكر في خلاصها وان وعدها بذلك ••

لهذا رأت هذه الجذوة الصالحة انها المسؤولة عن اقناع الشعب وجمع شمله وتلقينه دروسا تشرح فيها حقيقة الوضع وتكشف النقاب عن الفساد والخزي الكامن من وراء الوعود وتزيل الغشاوات عن الابصار حتى نرى صراحة نوايا المستعمر وأعضاده ، وليس من الصعب ادراك هذا بالنسبة لأصحاب العقول الواعية والضمائر المخلصة لكن من الصعب ادراك الى أكثر الطبقات لهذا كان الشاعر يغتنم كل الفرص لتقديم الصورة الكاشفة عن الحكومة حتى يستطيع ان يزيل تلك الثقة العمياء التي تغلغلت في نفوس البعض •

وفي الحفلات الدينية وفي مناسبات استقبال المعتمدين والوزراء الجدد أطنب الشاعر في بيان حالة الشعب وما يلاقيه من المستعمر الذى لم يكن بحالة من الاحوال اجدر منه بالحكم أو افضل في المنبت •

ولعل من أبرز الاشياء التي ينبغي تثبيتها في النفوس ليلهبها حماسا تذكيرها بمجدها الأثيل وبطولة اجدادها ، ففي ذكرى المولد النبوي الشريف رسول هذه الأمة التي يخاطب الشاعر جزءا منها ، فيذكرهم

بايمان الرسول بهذه الرسالة وما لقي من جراء هذا الايمان من شتم وظلم وتعدّ من الكفار ، واذا كانت ذكرى المولد النبوي لها المكانة السامية في النفوس فهي ولا شك رمز للمسلمين الى التخلص من الكفار البغاة والمستعمر الاجنبي وليس أعزّ عند المسلم وأقوى من ايمان الرسول بجدوى دعوته وهو وان تعرّض للشتم او الحرب ، فلابد أن يصل الى الحقيقة ولابد ان يكسر شوكة أعدائه .

واذا كنا نحن المسلمين لانؤمن برسول بعده فاننا نتخذ مبدءه وصلابته مصباحا تقوى به عقولنا ونجمع به أشتاتنا لنلقي بهذه الشرذمة - التي حاولت أن تقضي على قوميتنا النابضة - في الهلاك .

وهكذا يستمر الشاعر في بعث الحماس في نفوس الحاضرين ليحيي ما كمن في أجسامهم من نخوة الاسلام حتى يقارنوا الاوضاع ببعضها ويستمدوا العبرة من منقذهم الاول فيقول :

ويح الجزيرة لايزال يهبّ في	أرجائها لأجانب أعصار
حفّت مطامعهم بها فكأنها	خدّ احاط بجانبيه عذار
ما بال اطماع ترود جزيرة	هي مهمه في زعمهم وقفار ؟
يخشون أن تبقى هنالك جذوة	من نفحة فيها تثور شرار
أيرون انّ العرب تنسى ثارها	والعرب معروف لديها الثار !
المخلصون من النوابغ ان وفوا	بالواجبات محمّدون صغار
والناكثون على اختلاف نعوتهم	(آباء جهل) في البلاد كبار[1]

ويستاء الشاعر مرة أخرى لانهدام دولة العرب وارتفاع دولة الدخلاء فيعلن للشعب صرخاته الحارة .

أترفع دولة الدخلاء صرحاً	وصرح العرب يهدم بالقدوم ؟
ويهلك حزب رحمان رحيم	ويحيا حزب شيطان رجيم ؟[2]

(١) البلاد العدد ٢٢٢ (١٩٣٠) .
(٢) البلاد العدد الاول ١٩٢٩ .

ويشتم الشاعر من ينكر عليه هذا الاحتجاج والايمان فيدعم رأيه بالتاريخ ويذكر الخصم الذي تجاهل هذه الحقائق بواقعة اليرموك وجبال بواتيه وانهزام رودريك وحضارة العرب في الاندلس وما كان الخصم ليجهل هذا ولكنه يحاول أن ينسي أهلها فيها ، فيتصدى له الشاعر ويبعث لهيب هذه الحوادث في أفراد الشعب بحماس متدفق وعواطف جياشة تغني عن السلاح كلما آمن بها المخلصون .

قل للألى جهلوا مكانة يعرب ... انا لنسل ضراغم اليرموك !
لا نعتزي ابدا لغير فوارس ... وصلوا (بواتيه) بأرض تبوك
من كان مرتابا لباسق مجدنا ... فليسأل التاريخ عن رودريك
وحضارة في صقع اندلس بنا ... قد كان موصل حبلها المبتوك
حمراؤها تزهو بثوب معلم ... فكأنها من عسجد مسبوك[3]

●●

ألا انّ اخلاص الرجال لشعبهم ... ليفعل مالا تفعل الخيل والجند[4]

وما كان هذا الرافد الوحيد الذي يعتمده في بث الحماس بين الافراد فهو كثيرا ما يذكرهم بحالتهم وما يعانونه ، ففي قصيدته (غضبة شاعر) نراه يستنطق الحوادث ويسبر الأوضاع ويشكر المصايب التي أججت نفسه وكشفت له المساويء والمخازي والتقلبات التي تحبك فوق أرضه ، ثم يستعرض تلك التشريعات التي تكلم بها المدعوون والتي أماط البحث عن أسرارها وقد تخيلها سقيم العين ظواهر اصلاح لكنها معروفة الاغراض عند ذي البصر السليم ، فكان من ذلك التخيل ضحايا تساقطت ... ويطغى اليأس على الشاعر فيعمم البلوى في الكون كله ويصب أجيج نفسه على الدهر الذي انحاز الى الاوغاد الذين حام اللئام حولهم ووقعوا في شركهم ودهت الابرياء والمؤمنين الكوارث حتى تناكروا وفقد اللبيب لبّه .

---

(٣) البلاد ١١٠ (١٩٣٠) .
(٤) البلاد ١١٧ (١٩٣٠) .

فشكرا للمصائب اذ هـــداني — بريق نبـــالها سنن القـــروم
ارى للدهـــر لونا كلّ يوم — فليس على قـــرار مستقيم
فتشريع الكليم وكـــان سراً — أماط البحث عن ســرّ الكليم
تلوح ظواهـــر لسقيم عـــين — واسرار لذى بصـــر سليم
لذاك غدت فطاحل من رجال — ضحيّة كلّ ذى بصر ســقيم
ولا تبديل في اجزاء جســـم — ولكنّ التبدّل في الرســـوم
وما في الكون من شيء حميـد — باطـــلاق ولا شيء ذميـــم
ألا يادهـــر انك بانحيـــاز — الى الأوغـاد قد سبقت خصومي
ولا لـــوم على وغـــد لئيم — اذا ما انحـــاز للوغـــد اللئيم
دهينا بالمصـــائب من زمـــان — وايام على الدنيـــا حســـوم
وطـــار اللبّ من ارباب لبّ — وانكرت الحلوم اولو الحلوم [1]

ليس أشدّ على روح الشاعر من اخفاء الحقائق وتضليل الشعب بالوعود وتخدير قوته بالمستقبل ، لهذا نراه في قصيدته نفثات مصـــدور وليس هو المصدور فحسب بل مجتمعه بأسره قد نخر جسمه وتمـــكن السل من صدره فيهزأ الشاعر في هذه القصيدة بسن الوعود والمستقبل المتفجع والدعاوى الكاذبة ، والقصيدة في وضوحها وجلائها وحرارتها في غنى عن الشرح ، ونثرها يذهب رونقها لأنها برزت من أعماق نفســـه لتخاطب المشاعر برنينها .

يريدون طمس الحقّ والحقّ ألمع — وهـــل يستر الشمس المنيرة برقع ؟
تقاطرت الأفـــواج تبدي شـــكاتها — تغصّ بها طرق ويكتظّ مجمع
يموج بهـــا من سوء وضع تشاؤم — ويحدو بهـــا المستقبل المتفجّـــع
ألم تر شعبا حـــرّروه بزعمهـــم — تحلّ بواديه مصـــائب اربـــع
صـــغار وارهاق وجهـــل يبثّـــه — اولوا العلم عمدا ثم حكم مزعزع
وفيٌ فأتاه الغـــدر من كل جانبّ — وعفّ فوافاه التعسف اجمـــع
هنالك دولاب يجعجع للـــورى — ولكن على غـــير انتفاع يجعجـــع

---

(١) البلاد العدد الاول ١٩٢٩ .

يديرونه من صبحهم لمسائهم وما فيه للمقتات ما هو مشبع

●●

يضلوننا عن رشدنا بمهازل كما ألهت الصبيان باللعب مرضع

يقولون الاستقلال ذا فاقنعوا به وأنى لنا في فارغ القول مقنع

وقالوا اصبروا حتى تناهي اصطبارنا ولم يبق في قوس التصبّر منزع

وزارة عمّال رجونا رشادها اذا نحن عمال وهم قد ترفعوا

●●

فأين أقاويل يضج بها الفضا بها وعدوا ان هم بحكم تربعوا

●●

لقد هيّأوا اكفاننا وحنوطها فلا تغر بالطيب الذي الآن يسطع[1]

ولنترك هذه الحقائق لنندمج في حقائق أخرى أعمق غورا وأشد تفريقا للشعب وذبذبة للسلطة هي الرشوة التي عمّت ارجاء العراق وأصبحت طريقا شرعيا لجمع الاموال ليس فيه عيب ولا اعوجاج فهي سنّة الحاكمين من الأصغر الى الاكبر ، والطريق الوحيد لقضاء الحاجة لاتقوم امامها الشهادات او الكفاءات ، بل هي مفتاح لولوج المناصب والتمتع بها وليس غريبا هذا ما دام الاستعمار لاتهمه مصلحة البلاد ، ولا استتباب الأمن والعدل فيها فلتكن الاعمال غير منظمة والادارة مبعثرة ، ما دام المال دائم السيلان الى جيوب هؤلاء الذين عقدوا العزم أن لا يبتّوا بأمر الا تحت بريق الدينار والدرهم .

ومن الطبيعي أن يقتدي الموظف الصغير برئيسه في سن هذا المنهاج وهنا تعم البلوى كافة الناس ، وان كان البعض يكره هذه العاهة ويمقتها لانها تبعد صاحب الحق عن حقه وتجعل الفقير دائما مهضوم الجانب ، لكن ليس هذا فقط فهذه اعراض طارئة يمكن ازالتها والتخلص منها بسهولة ، انما الذى يغرز في الشعب هو نتائجها فاذا أصبحت كل

---

(١) البلاد العدد ١١٠ (١٩٣٠) .

الاعمال وخاصة الوظائف خاضعة للجاه ووهج الدينار وقبـــرت كل الكفاءات فسوف تسند المناصب وخاصة دائرة التعليم الى الحمقى والنوكى • وهنا ينحط المستوى الثقافي ويتكون لنا شباب مثل ساداتهم ، واساتذتهم ، طبول جوفاء وتماثيل جامدة لانتزاع الثقة واعتماد الاستاذ على مال يقدمه أن أخل بواجبـــه •

والعلم في اوطاننـــا متقهقـــر   مغمورة ارجاؤه بالنـــوك

× + ×

الى جيبهم ماراكب البحر جالب   وفي بطنهم ما زارع يزرع

ما كان الشاعر لتخفى عنه هذه العاهة التي تسربت في البلد فعالجها بشعره بكثير من الابيات ولم أجد له قصيدة انطق لهذه الظاهرة من فائيته ـ الوظائف عندنا ـ وقد قال عنها صاحب صحيفة البلاد (انها ضرب من الشعر الواصف يمثل ناحية من نواحي المجتمع) والقصيدة تهزأ بالقانون الذي سنته الحكومة للوظائف والتي ادعت انها سوف تعتمد في ذلك على المطالب وما تحمله من حالة المترشح وكفاءته لكنها قربت اصحاب الجاه وابقت الآخرين يشكون اهمالهم لانهم لم يتذللوا ولم يتقربوا لاصحاب النفوذ بالمال او التملق •

لقد شغرت بديوان وظيفـــة   فأعلنها الرئيس على صـــحيفة
فجاءته جموع الخلق تتـــرى   سراعا مثلما انطلقت قذيفـــة
وفي يد كل فرد عرضـــحال   تزوّقه عبـارات طريفـــة
وحامت حـــول ديوان اناس   كما حامت نسور حول جيفـــة

●●

اذا بـــرز الرئيس علت أكف   على كتفيـــه (فرجونا وليفة)
يطيف به اذا وافى فـــريق   وطائفـــة اذا ولّى مطيفـــة
ويسعى بعضهم يبغي قريبـــا   ويسعى بعضهم يبغي عريفـــه
ورب شراهة بعثت شريفـــا   على نكراء ما كانت شريفـــة

وآثار الفتـــى علـــم عليـــه	اليه لونهـــا ابدا مضـــــيفة
وان عيّ الشـــــفيع على أناس	مضوا كي يقرعوا باب الحليفـة
ولاذ بجانب (اللغفاء) قـــوم	بهم وبفضلهم اكلوا اللغيفة[1]
وما قد اهرقوا ماء المحيّـــــا	عليـــه افلس كانت طفيفـــة
فاما ان يحوز بهـــا رغيفـــا	فقير او يبلّ بهـــا رغيفـــه
يبشـــر بعضهم بعضا بنجـــح	ويبسم ان لقى الف اليفـــه
ولا يدري اخو الغفـــلات ماذا	خبت ايامـــه تحت الســـقيفة
اذا ما مرّ عشر من ليـــــال	وغايتهـــم على بتّ مشـــيفة
اذاعوا انّ محظـــوظا تـــولى	وهذى حالة الأمم الضـــعيفة[2]

والقصيدة تكشف لنا جانبا آخر مهما جدا وهي ان هذا المستعمر أبعد ابناء البلد عن الوظيفة ، وليس أدل على هذا من زف جموع الخلق وسرعتها عندما شعرت بديوان وظيفة ، وقد عالج هذه النقطة نفسها عندما لاحظ شحن الدواوين بالأجانب وتسرب لغتهم في السجلات والمحادثات .

دواويننا مشـــحونة بأجـانب	رطانتهـم تشجيك حين تقعقع
لقد هيّـــأوا اكفاننا وحنوطها	فلا تغر بالطيب الذي الآن يسطع[2]

هذا هو الرافد الثاني الذي احتك بخوالج الشاعر - فقدم عنـــه صورا ناطقة حية - التي ألقينا عليها بعض الاضواء ، وقد قللنا من الشواهد واوجزنا القول فرارا من الاسهاب وأتمنى أن اتتبع بعض الشعب الاخرى التي أيقظت مشاعر المترجم فكانت له فيها وقفات ورنات شعرية ..

---

(١) اللغفاء جمع اللغيفة وهو الذي يظـــاهر السراق واللغيفة نوع من الطعام .

(١) البلاد العدد ٢٦ (١٩٢٩) .

(٢) البلاد العدد ٧١ (١٩٣٠)

أنماط شتى من الشعر

كانت أغراض الشعر تتفق عند الشعراء القدماء ، وكان مبعث هذا الاتفاق هو التقليد ، وما كان شاعرنا يسير حسب هذا الاطراد انما هــو يستجيب لانطباعاته الداخلية فيسوق تجاربه واحاسيسه في أبيات من الشعر تكون أحيانا مقطوعات وكثيرا ما تكون قصائد طويلة ..

وان جعلناه سابقا يسير في رافدين متصلين ببعضهما الى اقصى حدود الاتصال لاننا لاحظنا ـ فيما جمعنا ـ ان روح الشاعر تنمو وتنتج فيهمــا أكثر من غيرهما ، وقد عللت هذا عندما قلت ان الشــاعر كان يعيش في مجتمع أثقلت جوانبه ضروب عديدة من التعسف والظلم ، شغلت بالــه وجذبت اليها احساساته وشعوره .

وأريد ان أقول الان ان للشاعر مرامي أخرى في شعره تمس من بعض الوجوه المجتمع العراقي كما تكون التجربة فيها بعض الاحيــــان منعكسة من الخارج فقصيدته (أطراف المغازل كأطراف الذوابل) تدعو صراحة الى ايجاد معامل صناعية متنوعة في البلد ينمو بها الانتاج المحلي وتشغل أيدي كثير من العاطلين .

فهذه التجربة التي عاشها الشاعر قد حفزها وغذاها ونماها انتشار بضاعة الاجنبي في الاسواق من أحقر الاشياء الى أرفعها ، كما غذتها في تلك الآونة ثورة الهند التي ترأسها غاندي ـ بفكرته الاقتصادية البناءة ـ

الذى أقلق الاستعمار البريطاني بتمرده •

والقصيدة في الواقع تشير الى هذا التيار الخارجي الـــذى أيقظ الشاعر كما ان الظروف التاريخية والمام الشاعر بحوادث الدول الاخرى تجعلني اطمئن الى أن الشاعر وعى وأحس مع غاندي ضرورة المصـــانع في البلاد ، ومن هناك كانت الفكرة تمس جانبا قويا من المجتمع كما هـــي ولا شك تزعج المستعمر الذى لايتقبل مثل هذا النضج العقلي والتفـكير الاقتصادى ، لان ذلك يخرب ويضعف أسواق بريطانيا التجـــارية ، نسى ان القصيدة تدفع رجال الامة النواب منهم والاعيـــان الى ادراك مسؤوليتهم أكثر فأكثر ، تقدم لهم مشاريع قيمة تدعم بها مطالبهـــم ان حاولوا الاخلاص لشعبهم والا فما قيمة هؤلاء النواب ومجلسهم •

ألا لا يفيد الشعب عرش ومجلس ... وليس له من صـــنع كفيـــه ملبس
أحق بتعظيم الانام فتـــى لـــه ... منافع تزكو بينهـــم حـين تغرس
وضـــوضاء آلات النسيج اجلّ من ... زعيم اذا لاقى الأجانب يخرس !

●●

عجبت لمن يكسوهم الخصم ذلـــة ... وهم يقتنون الثوب منه ليكتسوا !
بضائع تستهوي القلـــوب كأنهـــا ... مواقد تستهوي الـــذي يتمجّس !
واقبال مغرور على صـــــنع اجنب ... كجنسية اخـــرى بها يتجنّس ؟!
من العيب ان نبغي جميع متاعنـــــا ... من الغرب حتى ما به الدار تكنس!
عليـــك بمصنوع البـــلاد فانـــه ... يوطّد أركان البـــلاد ويحرس

●●

ألا هل لقومي مثل (غاندي) عزيمة ... بمذهبـــه صنع الغـــريب منجس
فاستبرق الغربي ليف بعينـــــــه ... وفي عينه ليف المواطن ســـــندس
غدا هاديا للشرق نبراس فضـــله ... كفـــاه فخـــارا انـــه لا يدلس
فأصبح في هذا نبيّ حضـــــارة ... شريعتـــه ذاك الجهـــاد المقدّس
يجاهد باللين الفظاظـــة والجفـــا ... وفي الملح اسـرار اذا هي تدرس

على مثل هذا تبتني العرش امــة   والا فلا عرش لديها مؤسس [١]

وليست فكرة غاندي فقط هي التي أحسها الشاعر انما كان يعيش مع كل المصلحين في كل مكان ، فيتطلع الى أخبار سورية المجاورة له ، ليسبر مدى استمرار خطوات الاصلاح فيها ومصير تلك الزمرة الذين (أخذ جمال باشا السفاح يسوق أحرار العرب وشبابهم القوي ومفكريهم عن توسم القابلية للتقدم بأمتهم الى معارج الرقي والتقدم الى ديوان الحرب العرفي في عاليه حيث كانوا يحاكمون محاكمة صورية تصدر على أثرها احكام الاعدام فتنفذ فورا بالعشرات في ميدان بيروت وساحاتها حيث تتأرجح هاماتهم على أعواد المشانق وأراجيح الابطال)[٢]

تصل هذه الاخبار للشاعر فيتقد ضميره غيظا ، وتلتهب نفسه حماسا ويذرف الدمع على هؤلاء الذين فقدتهم الامة العربية ، ومن الدموع والاحاسيس الصادقة تتكون قصيدته الطويلة (مشانق الامس مناصب اليوم)[١]

وما كان يبكيهم لتلاشي المجد بعدهم ولا لانهم مغاوير أسود كما يفعل الشعراء التقليديون في رثائهم للعظماء ، انما يبكيهم بالدموع الحارة لانه يرى فيهم نفسه ولان موتهم انتصار لاعدائه المجرمين واخفات لبذور الاصلاح التي بذروها في الشعب ولم يعيشوا ليشاهدوا حصادها .

والقصيدة كلها صور ناطقة لترهات الاجنبي ومسانديه ، وقد جمع فيها صورا من التشخيص وتحريك الصور ، أكسبتها حرارة وديمومة ، وكلها حلقات متصلة تشرح وتستقصي اعمال المجرمين وهم يعذبون الشعب البريء ويسفكون الدماء باسم الاخاء والحضارة ونشر الامن

أعــزّ ممات في مشانق اجــلال   واخزى حيــاة في مناصب اذلال
ضوامر اعواد تعــاقدن للــردى   وآلين لا يجرين الاّ بأبطـــــال
تخيرن اعناق الـــرجال قلائدا   غداة تبدت ســوقها دون خلخال

---

(١) البلاد العدد ١١٠ (١٩٣٠) .

(٢) مقدمة كتاب الاناشيد الوطنية للسيد محمدسعيد الجليلى ١٩٥٣

تنكرن حتى ان موضـــع جيدها　　مكان عقود الحلي مجدول احبـال
اذا ما تراءت للخـلائق اجفلـــوا　　على انها ما شوهدت ذات اجفـــال

●●

عجبت لخشب كالحـــات تمايلت　　عناقا وليس العطف منها بميـــال
مديمـــة اطراق أثـار سـكونها　　دويّا لدى الآفاق بالقيل والقـــال
وقور فما الزلزال منها بنـــائل　　مراما وقد احدثن اعظـم زلزال
تطارح ابطـــال الرجال بعريهـــا　　غداة تراءت للورى دون سـربال
حملن نفوسا طامحات الى العـــلى　　شيوخ دهاء لم يكونوا بأطفـــال

●●

لئن شـــنقوكم ضلّة وجهـــالة　　فما شنقوا تخليد ذكركم العـــالي
ستبكيكم قحطـــان ما دام ناسـل　　يجود على مرّ القـــرون بأنسـال
على رسلكم ان الذي عاش بعـدكم　　يعاني صنوف الشنق في عهد ضُلا ل
فشنق كرامات وشـــنق شـــعائر　　وشنق لأخـلاق وشنق لأمـــوال
لئن كان في هاتيـك شنق أكـارم　　ففي هذه شـــنق لمستقبل غـــال
جزى اللّه قوما اجرموا شرّ ماجزى　　مقطـع اوصال بتقطيع اوصـــال
اولئك قوم طاردوا مجد يعـــرب　　وعاثوا فسادا في سهول واجبال[١]

ما كانت هذه القصيدة الرثائية هي الوحيدة من نوعها ، انما الشاعر الحساس دائم الاتصال بأولى الفضل والمجد في حركاتهم ونشاطاتهـــم فيرثي أحمد باشا تيمور بمناسبة مرور أربعين يوما على وفاتـه بقصـــيدة طويلة تعج حرارة وعاطفة (فقيد الضاد)[٢] الذي أبقى روحه وعقله في كتبه الكثيرة وأفكاره النيرة •

---

(١) القاها في الحفلة التي اقيمت يوم ٦ أيار ١٩٣٠ في قاعة سينما رويال ببغداد في احياء ذكرى الشهداء العرب (جريدة البلاد العـدد ١٥١ ـ ١٩٣٠) •
(٢) ١٧٣ (البلاد ١٩٣٠)

وما كانت تغيب عن ذهنه صورة أخوانه العراقيين الذين فضلوا الخروج والنزوح عن وطنهم لحماية شرفهم وافكارهم ، والذين ابتعدوا عن وطنهم لانهم ما وجدوا كرامة فيه ، وكان الشاعر العراقي الكبير الكاظمي أحد هؤلاء الذين وجدوا في أرض مصر أصدقاء واخوانا فعاش هناك الى أن فقده الادب العربي فرثاه الشاعر بقصيدته (عبرة الدهر في حياة الأعاظم)[1] .

والى جانب هذه الحوادث التي أدمت واثكلت قلب الشاعر مصاب العروبة بوفاة السياسى القدير والزعيم المخلص ابراهيم بك هنانو[2] الذي عاش كريما وقد أخلص لوطنه حتى هز فقدانه البلاد فرثاه الشاعر بدالية عصماء استعرض فيها خصال الفقيد وجدارته بالزعامة وقد كان من أخلص أصدقائه فجاءت قصيدته صادقة العاطفة تعبر بحرارة عن الحنين الذي نما بينهما مع الايام واليك مطلعها :

جللوا الارض بالسواد حدادا ان فقد الزعيم هز البلادا[3]

وهكذا يستمر الشاعر في تسجيل الحوادث التي تدور لا في مجتمعه الصغير فحسب بل في المجتمع الكبير كله ، ويتلقى الاخبار من الداخل والخارج فيحزن لما كان منها مزعجا ، ويسجلها في أشعار لتحكي يوما مع الحوادث التاريخية ما كان يجري في هذا العصر من مآسي نكراء . كما كان يستبشر بكل خيوط الاصلاح التي يتلمسها من بعض أولي العزم

---

(١) البلاد العدد ٥٧٨ (١٩٣٥)

(٢) هو الرجل العربي العظيم الذى دافع عن عزته وكرامة بلده طويلا ، وهو من مواليد حارم البلدة الصغيرة الواقعة غربي حلب وقد تولى زعامة الحركة الوطنية سنة (١٩٢٨) كما انتخب رئيسا للجنة الدستورية في الجمعية الوطنية (١٩٣٠) وقد زار القدس واعتقلته السلطة البريطانية وسلمته الى فرنسا التي بعثته الى لبنان (البلاد ١٩٣٥) .

(٣) البلاد ٤٣٥ (١٩٣٥)

النشيط[1] ، فلقد اهتزت نفسه للرحلات التي كان يقوم بها الاستاذ يونس بحري لانه أدرك عمقها وما تقدمه من فوائد لهذا الرحالة الذى كان يرمي ولا شك من صنيعه هذا الى التعريف ببلده واعطاء الصورة الكاملة عنهاللدول الاخرى ، وهذا جانب ايجابي قوي لطرد الاجنبي من العراق بجانب بعض الدول لتساند العراق في الميدان السياسي .

ثم اذا وقفنا مع الشاعر في قصيدته (معلقة الحرب)[2] وقصيدته لا عرب بغير فلسطين ولا فلسطين بغير عرب ـ القصيدة التي أشرنا اليها في أول كلامنا ـ أدركنا حقيقة اتساع نظرة الشاعر ومدى تتبعه الاخبار وتفاعله معها ، وهو زيادة عن ادراك مجتمعه الادراك التام فلم يهمل أي جانب من جوانبه .. فانتشر القمار وانسياق الشباب فيه ليطمس حاضره الحزين حرك الشاعر وتشاءم من مصيره فقدم تشاؤمه هذا من تلك العاهة في قصيدة (القمار)[3] كشفت حالة الشعب الذي أراد أن ينسى نفسه المعذبة بكل الوسائل وزيادة عن اهتمام الشاعر بمجتمعه فقد حركته الحوادث الخارجية وسيطرت على احساسه كقصة الوزير الامريكي الذي تلقى صفعة على خده من احدى بنات الحبشة في سنة **١٩٣٣** دفاعا عن كرامتها ، والتي تظهر للبعض مضحكة ولا تستحق التسجيل من شاعر أو كاتب لكنها في الحققة لها وقعها في النفوس ، لأن الصفعة التي تلقاها الوزير تحمل في طياتها شرف الانسان ومدافعته عن نفسه ، وتنم عن ايمان قوي بمبدأ دفع الاهانة والصمود امام من يحاول أن يعبث أو يستهين بالانسان ، ومن هنا كانت هذه القصة تنعكس من بعض الزوايا على الشعب العراقي الذى كان يرجو الشاعر منه ان يكون أبيا يدافع عن كرامته ونفسه ويؤمن بقوميته وعروبته ، ولا يريده ان يتذلل ويتزلف للاجنبي .

---

(١) قصيدته العزم النشيط الذى نظمها بمناسبة تكريم جريدة البلاد للسائح العربي العراقي ، البلاد العدد ١٨٩ سنة ١٩٣٠ .

(٢) البلاد (١٤ أيار سنة ١٩٤٤) .

(٣) البلاد (عدد ١٦٢ سنة ١٩٣٠)

لا يغرنكم نهـــار طـــويل ايها البيض فالنهار قصـــير
يولج الليـل في النهـــار وقد يعكس ذا الامر من اليـه الامـور[١]

وما أظن لفظة بيض هنا تعني غير الاستعمار في كبريائه وزهوه الذى يبشره الشاعر بالأفول عندما يدركه الليل وتعم الحرية والاستقلال ..

الى هنا وصلنا مع الشاعر في اغراضه وهى كما قلت أكثر من مـرة انها لاتخرج بحال من الاحوال عن واقعه وواقع مجتمعه ، وهمي ان اتحدث في فصل قادم عن شاعريته لأتلمس قيمة هذا الشعر من الناحية الفنية التي حاولت تحليلها فيه وربطها بحوادث العصر ، وبهذا أكون قد بحثت الشاعر من خلال فنّه الشعري ومواهبه في طاقته الشعرية ، بعدما حاولت تقييمـه داخل مجتمعنا ....

---

(١) من قصيدة الاباء الأبيض للشعب الاسود (البلاد العـــدد ٦٩١ سنة ١٩٣٥) .

شخصيته الفنية

لا نغالي اذا قلنا ان الاستاذ الملاّح من الشعراء الممتازين في العـراق وقد سبقنا الى هذا دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠ في مقاله (الشعر) وحقا هو يستحق هذا اللقب وجدير به اذا علمنا ان الشاعر دائم التجاوب مع شعره يولده من نفسه بعد ان يهضم التجربة ويعيش احداثها ، فما كان من ضمن الشعراء الذين يتقيأون ما عندهم من تجارب قبل ان تكتمل خلقتها في داخل أنفسهم فتكون تلك الاشعار اجهاضا يتمايل على وجـه الحقيقة ، لاتحمل معها دعائم الخلود والحيوية ... وهي عبارات متراصّة جيء بها لتكمل البيت ، ثم الابيات لتبرز القصيدة .

وما كانت تجارب شاعرنا وليدة برهة زمنية قصـيرة أو حدث خاطف انما هي تمازجت مع تفكيره واهدافه ، وبهذا كانت نفسه الصادقة وعواطفه الحقيقية ماثلة في كل شعره ، تجدها في كل بيت وفي كل كلمة .

وشعره ـ الذى جمعته يمثل لنا وحدة موضوعية وان تشعبت بعض جوانبها لانهـــا في كل ذلك حلقات متصلة ببعضها .. فهي تمثله في كل جانب من جوانبه الرجل القوي الذى أدرك واقعه ، ووجد نفســه ضمن مجتمعه العربي الكبير ، الذى عبثت به أيدى الزمن الغشوم فكان يعي هذه التجارب المرة ، ويتصارع معها في داخل نفسه ، ويبرز نتاج هـــذا الصراع المستمر في أبيات شعرية لطيفة تتجاوب معها النفس الحساسة ...

والشاعر ما هزته بعض الانحرافات يوما لتجده في فترة معينة ينحرف عن هدفه الاساسي الذى آمن به وأحس به ينبع من داخل نفسهواعماقضميره، فهو الرجل العربي القوي تتراءى لك شخصيته في كل شعره وكل آرائـه النقدية والاصلاحية .

فرغم شناعة الاجواء أحيانا ، وانحراف المقاييس غالبا ، ما كان يمتدح بشعره ، ولا اقصد بهذا أن اسلب وانتزع جانب المدح من شعره ، لانني ما نسيت انه رثى أشخاصا عديدين ، وما الرثاء الا ضرب من مدح الاموات .. كما اني لا انفي جازما خلو شعره من مدح الاحيـاء ، الا اني أردت بالتمدح هنا ذلك الانحراف الذى تعمده الكثيرون في مدحهم ، فهو ليس كغيره من الشعراء الكثيرين ـ قديما وحديثا ـ الذين زعموا انهم يتوّجون شعرهم بشخصيات اجتماعية عظيمة ليخلدوا شعرهم ... وما كان منهم هذا الزعم غرضا مباشرا ولا صحيحا لان شعرهم غالبا ما يموت مع ساداتهم او تمجه الاسماع على الاقل ، لانهم لم يكونوا صادقين في أكثره اذ كان هدفهم الحقيقي فيه هو التقرب لذوى الجاه والتعلق بما يلمع في يد هؤلاء العظماء من دنانير وهدايا وهبات ..

واذا نفيت عن الشاعر هذا الانحراف ، ولم أجزم بنفي المدح عنه ، ذلك ان المديح ما كانت دوافعه الاساسية المال أو الجاه لكنهم غيروه ـ وأعني بهم شعراء الاماديح الرخيصة ـ اولئك الذين نزلوا بالشعر الى مستوى أقل ما يقال فيه انه انحراف في سمو الذوق وسنة الطبيعة ورسالة الشعر ..

فليكن الاعجاب وصفات النبل وعظمة العلم والآراء السديدة ... دوافع قوية لقرض الشعر وليس في ذلك ادنى اعوجاج ، أما اذا كان المال والسطوة والجاه هي ركائز الشعر ، فتباً لهذا الشعر وذلك الشاعر المتاجر بشعره في أسواق البضاعة الكاسدة .

ولعلي قد انجرفت في هذه الظاهرة أكثر من اللازم ،نعم كان ذلك لانجراف أصحاب الاحساس المرهف في عبادة الآخرين وهم يتلمســـون الآثام تقطر من جميع جسمهم ، فما حق لهم ان يعبدوهم ويمجدوهم بل

كان عليهم ان يوجهوهم ويهدوهم سواء السبيل ، ويكون ذلك كله من أبلغ المديح وأنجعه كما قال شاعرنا للاستعمار ..

نصيحة من بغيض غير متهم   اولى من الغش تحت الود يستتر[1]

وبهذا كان الشاعر صادقا في شعره وأفكاره ينطق بالحقيقة ويسجل خواطره كيفما أمليت عليه من الداخل وكيفما وعاها عقله الحاذق فكان يعالج المشاكل الاجتماعية والسياسية ... برأى خصب وعقلية ناضجة ، وعلى هذا فهو ان مدح فلا شك ان الاعجاب الحقيقي وآراء ممدوحيه المخلصة هي التي دفعته الى ذلك كما رأيناه في مراثيه .

كانت التجارب التي يواجهها الشاعر وتوجيه شعره الى الشعب يملي عليه أسلوبا سهلا مبسطا وقداهتم بمشاكل أمته فسجل شعوره ضمن شعورها وأحاسيسها كما جلب لها التجارب من الخارج ، وذكرها بمجدها الأثيل وبطولتها القوية الراسخة ثم قدم للحكام صورا مكشوفة عن واقع هذا المجتمع ...

كانت أغراض هذا الشعر تفرض عليه البعد عن غموض العبارة وغرابة اللفظ وتعقيد الصور ليكون هذا الشعر أكثر فعالية وأشد تأثيرا في الطبقات ، ولم يكن همه أن يتفوق على غيره بجانبه اللفظي فيحلي شعره بالمحسنات البديعية والتشابيه الدقيقة الغريبة بل كان هدفه ان ينقل احساسه بصدق وأمانة الى مجتمعه ، وليس معنى هذا انه يتخلى عن حسن العبارة وسلامتها في سبيل تقرير الفكرة وسوق المعنى انما هو يؤدي انطباعاته وأحاسيسه في بساطة ويسر ...

واذا قيل ان لغة الغزل يجب ان تكون رقيقة عذبة ، ولغة الحماسة قوية .. فلابد أن تكون لغة الشعر الاجتماعي والسياسي سهلة مفهومة همها ايصال الفكرة واقرارها في الذهن بأيسر الطرق وأسلس العبارة ، ولهذا

---

(١) الزمان (٢٤ آذار ١٩٤٤) .

كانت عبارته في بعض القصائد[1] أعمق واصلب لانه خاطب فيها طبقة مثقفة من المجتمع بينما نجده في أخرى يتعمد البساطة والسهولة .

ولعل انصهار الشاعر في التجربة بكل عقله وروحه جعل نفسه طويلا في القصيدة فيعالج النقطة او الموضوع من كل جوانبه متسربا وراء الحوادث ساحبا صورا من التاريخ الماضي ليصبها في الحاضر ، وقد اكسبت شعره قوة وصمودا .

وقضية الحوادث التاريخية جانب مهم في شعره يكشف بوضوح عن عمقه وتتبعه للتاريخ واطلاعه عليه ، اذ تستشف أزمنة تاريخية بعيدة المدى كامنة في أشعاره ومواقع حربية ينطق بها شعره كما يعمد غالبا الى سرد اسماء أشخاص لعبوا دورا هاما في التاريخ ما استطاع الزمن ان ينساهم بل تتردد اسماؤهم واعمالهم كلما تشابهت الظروف ، واشعاره كثيرة في هذا هذا وهي تدل على حيوية شعره وربطه بالحوادث الهامة بل أكثر من هذا! قلما تجد قصيدة واحدة خالية من هذه الظاهرة التي تجعل شعره حيا خالدا كخلود هذه الحوادث .

ومن ضمن هذا فهو يحرك صوره ويشخصها لربطها بتلك الحوادث فقصيدته (مشانق الامس مناصب اليوم)[2] وقصيدته (غضبة شاعر)[3] كلها صور واقعية حية جسمها الشاعر حتى أوصلها للاذهان .

الواقع ان أكثر تشابيهه تعتمد على التشخيص وتحريك الصور التي اكسبت شعره قوة وخلودا والتي ساقتنا للايمان بأن الشاعر وجه شعره وجهة تهمّ العصر الذي دبت في محيطه الاضطرابات والذبذبة ، فكانت مهمة الشعر ايقاظ نيام الشعب وبث الحيوية فيهم ليتلمسوا مع الشاعر مشاكلهم ويكونوا من أنفسهم قوة يدافعون بها عن كرامتهم ومجدهم ، ولهذا كان لزاما أن تكون لغته كما قلنا سهلة يسيرة بعيدة عن التزيين والحشو

---

(١) الزمان ١٩٤٤ وقصيدته التي رثى بها الكاظمي وأحمد تيمور باشا والاخرى التي ألقاها في المؤتمر البرلماني في القاهرة .

(٢) البلاد (١٥١ ـ ١٩٣٠) .

(٣) البلاد العدد الاول ١٩٢٩ .

والتعقيد والاهتمام بالكنايات والاستعارات .. لان الشعر في هاته الفترة مصباح لهداية الامة وبث الوعي فيها ، وكانت مهمة الشعر موجهة الى تلقين كل الطبقات ولم يكن موجها لاصحاب أكياس الذهب والمناصب الرفيعة فحسب.

وهذي الخطة التي سار عليها الأستاذ الملاح كشفت لنا بوضوح ان ملكة الشعر عنده بلغت اوجها من النضج والكمال وتكامل رصيده اللغوي وأصبح الشعر عنده يجري على السليقة، لايحتاج الى تكلف واجهاد قريحة.

وهكذا كانت رسالة الشعر في هذه الفترة التي اجتاحت نهضتنا الادبية اليها الى جانب احتياج جهادنا الى السلاح والقوة المادية لتقوى بهما معا معنويات الافراد ويكون بهما أشخاصا تعمق الايمان في نفوسهم واسترخصوا كل شيء في سبيل كرامتهم وقوميتهم ولا يسعني هنا وانا اسجل آخر انطباعاتي عن شاعرنا الكبير الا أن أتعرض لظاهرة الجناس في شعره

قالوا أتيناكم لفكّ قيودكم فاذا الفكاك سياسة التفكيك !

كما تكرر العبارات المتشابهة والواحدة في البيت :

فتأتي بالنسائم بعض حين وتأتي بعض حين بالسموم

فهذه الظاهرة التي تبدو واضحة في شعره لم تكن لتبخس الرجل حقه ولا تضع شعره ضمن زاوية الصناعة والتكلف لاننا لا نستطيع أن نصف الشعر بالتكلف والصنعة الا اذا تجلى لنا من الابيات ضعف وركاكة انما هذه الاشياء التي بدت واضحة قد أضافت لشعره خاصة اخرى هي الترداد الموسيقي والترنم الصوتي ولم نكن نشعر منها بالقسر بل هي تسير عفوية طيعة في شعره تضيف اليه نغما ورنينا وتجعله من باب السهل الممتنع .

هذه وقفات قصيرة وسريعة وقفتها مع شعر الاستاذ محمود الملاح واني اذ أقدمها اليوم للقاريء لا انشد فيها الكمال والنضج ولا أدعي فيها الاكتمال ، وقد أخجل من قصرها وتفاهتها عندما اوازيها بشعره ونثره الجم ..

١١ شباط ١٩٦٢ (٦ رمضان المبارك ١٣٨١)

محسن الحبيب

HABAIB MOHSEN
GRADUATE OF THE
UNIVERSITY OF BAGHDAD.

THE POET Al MALLAH

ANALYSTIC STUDY

PUB BY MUTHANA LIBRARY

BAGHDAD 1962.